د. عبد الحليم عويس

في ظلال الرسول صلى الله عليه وسلم

دار الاعتصام

٢١٩
ع ع ف
م

في ظلال الرسول ﷺ

الدكتور عبد الحليم عويس

في ظلال الرسول صلى الله عليه وسلم

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى إمام العظماء وأشرف الخلق

لم يستطع « مرجليوت » ـ وهو عـدو لدود للاســلام ـ الا ان يعترف بان الذين كتبوا فى الســيرة المحمــدية لا ينتهى ذكر لأسمائهم ، وبأن هؤلاء الكتاب يرون ان من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلسا بين الذين كتبوا فى السيرة المحمدية .

ـ فماذا يمكن ان تضيف صفحات قليلة كهذه ؟.

ـ انها مجرد معايشة عصرية للنبى الكريم ، الذى أرسى للبشرية من خلال بنائه للانسان والدولة والحضارة ـ قواعد الحق والخـير والجمال ، فى أروع تناسق وانســجام عرفهما التــاريخ « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

فاليه ... الى محمد بن عبد الله خاتم المرسلين وامام حضارة المسلمين ... اهدى هذه الصفحات .

وعليه الصلاة والســلام .

عبد الحليم عويس

سيرة النبي ﷺ
بين المنهج والمذهب

مقدمة

ليس سهلا أن يقدم كاتب ما على محاولة اعطاء صورة موضوعية شاملة لسيرة النبى الكريم عليه الصلاة والسلام ، ذلك لأن السيرة العطرة ــ بكل اشعاعاتها ــ أكبر من الطاقات التى يســتطيع انسان عادى فى القرن الرابع عشر للهجــرة (العشرين للميلاد) أن يستخدمها فى رسم أبعاد هذه السيرة الكريمة ، مع ما نعرفه عن تلك التأثيرات التى أحدثها فى دنيا العقل والوجدان ، هذا القرن المادى الانحلالى ، بحيث أصبحت الرؤية للحقائق دائما تأخذ زاوية منحرفة أو شبه منحرفة .

ولا أستطيع ــ وأنا بصدد الحديث عن سيرة أصدق الخلق ــ أن أزعم براءتى من بصمات هذا العصر .. وخلوى من تأثير جراثيمه التى تنتشر فى الهواء والغذاء والماء .

ولعل فى هذا الاعتراف عذرا عن التقصير الذى يمكن أن يكتشفه القارىء الكريم فى هذه الصفحات التى حاولت فيها أن أعيش ــ مجرد ساعات ــ فى ظلال النبى عليه الصــلاة والســلام .

ان القصور يكمن فى بصيرة الرائى وطاقاته وليس فى حقيقة الشمس الساطعة العالية .

وانا أعلم ان أسلافنا الكرام عندما كانوا يقدمون على دراسة القرآن أو السنة أو السيرة الزكية ، كانوا يستعدون استعدادا نفسيا ووجدانيا وفكريا خاصا بحيث تتحقق لمشاعرهم وافكارهم اكبر درجة من التسامى والنظافة المعنوية . وتلك حقيقة يعرفها من له ادنى اهتمام برجال التراث الاسلامى وسيرهم . ومع ذلك ، ففى هذا العصر الذى اصبحت فيه الكلمة تجارة لا رسالة ، وطريقا الى المنفعة لا الى الحقيقة — تجرأ ناس كثيرون ملوثو الفكر مهزوزو العقيدة مشوهو السلوك — على الكتابة عن النبى العظيم عليه الصلاة والسلام . بل ان حياته الكريمة التى كان من الواجب الدخول الى ساحتها لتقديم القمة السامقة ، والنموذج الأرقى الذى يجب أن ترنو اليه البشرية — قد تعرضت لضغوط ما نسميه « المذهب » على « المنهج » ، و « الراى » على « الحقيقة » . .

ودعك من جمهرة كبيرة من المستشرقين ، فهؤلاء واضحون فى هويتهم ، معروفون لمن يملك حاسة العقل !! اكبر همهم ان يخضعوا الرسول لبيئاتهم وامزجتهم واهداف مؤسساتهم التبشيرية والسياسية . . .

- فمحمد (عليه السلام) المانى اذا كان المؤلف المانيا .
- ومحمد (عليه السلام) ايطالى اذا كان المستشرق ايطاليا .
- ومحمد (عليه السلام) روسى اذا كان الكاتب روسيا .

فجنسية محمد (نبى البشريـــة القرشى الهاشمى) تتغير بتغير جنسية الكاتب(1) ، بحيث يمكن الاستنتاج بأن ما يقدمه لنا هؤلاء المستشرقون انما هو صورة خيالية تعكس ما فى أذهانهم ، أو بتعبير آخر .. تفرض « المذهب » على « المنهج » و « الرأى » على « الحقيقة » .

- فالمستشرق « جزيم » نهج هذا النهج فى تناوله لسيرة النبى .
- والمستشرق « دوزى » نهج هذا النهج ايضا .
- والقس « لامانس » ــ المشحون حقدا ــ نهج هذا النهج .
- و « نلدكه » ..
- وسنوك هرغرنجة .
- وواشنجتن ايرفنج .
- وكيتانى .
- وبنعلى جوزى .
- ومونتجمرى وات .

ــ كل هــؤلاء المستشرقين وعشرات ، بل ومئات ، غيرهم ، فى سائر الأقطار الأوربية ، والأمريكية ، والآسيوية تحدثوا عن محمد عليه الصلاة والســلام من وحى خيالاتهم

(1) انظر محمد رسول الله لايتين دينيه ترجمة فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود « صفحة ٧ » .

وأهوائهم وليس من وحى الحقيقة التاريخية الموثوقة . ..
ومع ذلك فهذه الجمهرة الاستشراقية واضحة معروفة ، لأنها
بدأت بداية جلية الهدف ، فى مساعدة التبشير النصرانى ..
ذلك الخادم الأمين للاستعمار وأطماعه البعيدة والقريبة !!

* * *

وأخطر من هؤلاء المستشرقين على السيرة الزكية فى
هذا العصر ذلك النفر الذى يختلط الوعى فى حقيقة منطلقاتهم
الفكرية وأهدافهم البعيدة .. بحيث يتعذر على القارىء العادى
الحــكم على منهجهم هل هو « علمى محايد » منطلق من
الحقيقة هادف اليها ، أم هو هدف مغرض ماهر فى تزييف
الحقيقة والباس الباطل رداءها .

وتحت هذا المنهج يمكن أن توضع تلك المحاولات التى
قام بها بعض تلامذة الاستشراق وسدنة الدين العقلى الذى
يريد تجريد الرسالة والرسول من الجانب « الغيبى » ..
وتحويلهما ــ باسم مقاييس العلم ــ الى ظاهرة « تحتية »
وليست « فوقية » تخضع للناموس العادى ، ويمكن تحليلها
كمــا يمكن تحليــل كل ظاهرة طبيعيــة من ظواهر الكون
الملموسة !!

ومهما صح الحديث النبوى سندا ومتنا ... فهو ــ
فى لغة هؤلاء ــ مرفوض ، لأنه ــ فى رأيهم ــ لم يصح « عقلا »
« وعلمــا » !!

ــ فالنبى عليه الصلاة والسلام ــ فى نظر هــؤلاء ــ
عبقرى !!

ــ والمعجزات النبوية ــ ماعدا القــرآن ــ ملغاة !! وظاهرة الوحى ظاهرة ((نفسية)) أو ((تليباثية)) .. وهلم جرا ... !!

* * *

وثالثة الاثافى على السيرة ــ فى موكب المناهج المنحرفة ــ ذلك المنهج المعوج الأعور المنحرف الذى يريد استنطاق السيرة الزكية غير ما تنطق به ، وفرض مواقف فى ظروف محدودة على القاعدة الحياتية كلها ...

وعلى رأس هؤلاء المنحرفين المزورين جماعة الاشتراكيين والشيوعيين ((اليساريين)) الذين ينظرون الى النبى على أنه ((مصلح اجتماعى)) أو ((قائد ثورة)) أو ((محرر للعبيــد)) أو ((نصير للفقراء ضــد الأغنياء)) حتى ولو عدل الأغنياء وتبرعوا بثرواتهم لتحرير الفقراء ، وأدوا حق الله فى المال ! فالصراع الطبقى حتمية لا يمكن التنازل عنها !!

وهكذا من نماذج هذا التحريف الجائر الذى يهدد أمانة العلم واستقامة التفكير بنكسة مزرية ، ويطعن فى ســلامة ((الفكر المعاصر)) .. !! وحسب القارىء أن يراجع ما كتبه ((عبد الرحمن الشرقاوى)) فى كتابه ((محمد رسول الحرية)) أو ما كتبه اليسارى الآخر ((خالد محيى الدين)) عن ((محمد والعدل الاجتماعى)) (كجزء من كتاب محمد نظرة عصرية جديدة طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت) . أو ما كتبه الشيوعى الثالث ((أحمد عباس صالح)) فى مجلة الكاتب عن ((اليمين واليسار فى الاسلام)) ... أو ما كتبه ((حسنين كروم)) عن ((محمد ونظرية التنظيم والثورة)) .. !!

* * *

ان المنهج السليم لدراسة الســيرة هو نفسه المنهج

السليم الذى يمكن أن تدرس به الحقائق العلمية والتاريخية كلهـا .

ان المنهج يتلخص فى ضرورة التجرد النزيه وانفساح الصدر على الحقيقة وتلمسها ، والرغبة الصادقة فى الوصول اليها والتأثر بها ، والرجوع — بعد ذلك — الى المصادر الأصلية للسيرة النبوية ، بدءاً من القرآن الكريم ، فالسـنة الشريفة الصحيحة ، فكتب السيرة والمغازى المعتمدة لدى علماء الاسلام . ثم ترك الحقيقة تعلن عن نفسها ... وليس ثمة شروط أخرى .

* * *

واخـيرا ...

فاليه — عليه الصلاة والسلام — اقدم اعتذارى .

— فما كان مثلى أهلا لأن يكتب عنه — عليه السلام .

— وانما هو طموح القاع نحو القمة ... والطموح حق للمسلم الآمل فى رحمة الله : « لقد كان لكم فى رسـول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

— فان أصبت ... فمن الحياة فى ظلال القرآن والسنة الشريفة هديت الى الصواب .

— وان قصرت .. فمن عوامل الضـعف البشرى ، وبصمات هذا العصر المادى ، كان عجزى عن الرؤية .

ومن الله التوفيق والسداد .

عليه توكلت واليه انيب .

د. عبد الحليم عويس

عالم القرن السادس الميلادى
بين الشيوعية والانحلالية

عالم القرن السادس الميلادى

المادية والفوضوية :

فى القرن السادس المسيحى كانت الجماعة البشرية خاضعة — شاءت أم لم تشأ — لقوتين تمثلان تيارين كبيرين .. يجتاحان انسان هذا العصر .

كانت « فارس » تمثل المادية الجاهلية ، بكل الفوضوية العقائدية والفكرية والخلقية التى امتاز بها « اللادينيون » على امتداد التاريخ ...

ففى هذه الامبراطورية الفارسية التى تألق فيها خلال العصر الأخير (الساسانى) بالقوة والطغيان والقسوة والارهاب اباطرة كثيرون كأزدشير بن بابك ، وسامور بن أزدشير ، وهرمز ، وبهرام بن هرمز ، ويزدجرد الملقب بالاثيم ابن بهرام ، وقباذ بن فيروز ...

وفى هذه الامبراطورية الكبيرة التى شاركت فى حكم العالم القديم — لا تكاد تجد ملكا يقترب من الخلق الانسانى الصحيح ، ولا من اصول الحكم العادلة ... اللهم الا قلة قليلة .. لعل ابرزها كسرى انوشروان الملقب بالعادل .... ليس لعدله الحقيقى وانما لمحاولته الاقتراب من العدل وسط بحر من الظلم والظلمات زخر به التاريخ الساسانى كله .

ويصور لنا (كسرى) هذه المأساة فى تلك الرسالة التى اضطرته الظروف لارسالها عشية توليه الأمر — بعد اتساع الخرق على الراقع — الى حكام اقاليم الامبراطورية الملقبين « بالفاذوسبانيين » ... يقول فيها :

« من الملك كسرى بن قباذ » ...

« سلام ... فان احرى ما استوحش له الناس فقد ما تخوفوا فى فقدهم اياه زوال النعم ووقوع الفتن وحلول المكاره (......) وانا لا نعلم وحشة ولا فقد شىء اجل رزيئة عند العامة ولا أحرى أن تعم به البلية من فقدان ملك صالح ..

وان كسرى — يعنى نفسه — لما استحكم له الملك ابطل ملة رجل منافق من اهل فسا يقال له (زرادشتا بن خركان) ابتدعها من المجوسية ، فتابعه الناس على بدعته تلك ، وفاق أمره فيها ، وكان ممن دعا العامة اليها رجل من اهل مذرية يقال له مزدك ابن بامداذ .. !!

وكان مما أمر به الناس وزينه لهم وحثهم عليه : التآسى فى أموالهم (المساواة المطلقة الفوضوية ، اى الشيوعية فى الاصطلاح الحديث) والتآسى فى أهليهم ، اى الشيوعية فى (نسائهم) .

وقد ذكر أن ذلك من البر الذى يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب « وانه لو لم يكن الذى أمرهم به وحثهم عليه من الدين — كما يزعم زرادشت — لكان مكرمة فى الفعال « تقدمية » ورضى فى التفاوض .. فحض بذلك السفلة (البروليتاريا) على العلية ، واختلط له أجناس اللؤماء (حثالة البروليتاريا) بعناصر الكرماء . وسهل السبيل للغصبة (المغتصبين) الى الغصب ، وللظلمة الى

الظلم ، وللعهار الى قضاء نهمتهم والوصول الى الكرائم اللائى لم يكونوا يطمعون فيهن ، وشمل الناس بلاء عظيم لم يكن لهم عهد بمثله »(١) وعلى الرغم من قرابة نصف قرن ظل فيهــا كسرى انوشروان يحقق للفرس ما كانوا يحلمون به من عدل ، ويحيى لهم بيوت « عبادة النار » (!!) بعيدا عن ظلم الحكام وجور المذاهب الفوضوية المادية (الزرادشتيه والمزدكية) ...

على الرغم من ذلك فان روح الفوضوية الخلقية كانت قد اصبحت الدين الذى يحكم عقول الناس ونفوسهم حتى فى ظل عبادة النار (**المجوسية**) ..

وبموت كسرى أنوشروان (قريبا من العــام الذى ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام) — والذى يعتبر كله جملة اعتراضية فى مسيرة التاريخ الفارسى المجوسى .

بموته عاد الأباطرة سيرتهم الأولى من الجور والظلم والفوضى الخلقية التى تتلخص — كمذهب — فى شيوعية فكرية وسلوكية تتخذ من المجوسية .. التى تجعل من (النار) كوسيلة مادية تقدمها وتعبدها — اساسا لتصــور العــلاقة بالكون وبخالق الكون . أن الشيوعية المجوسية الفارسية لم تكن عقيدة غوغائية جماهيرية فحسب ، وانما كانت عقيدة حاكمة مسيطرة ايضا — على الرغم مما يبدو لنا من سلوك كسرى انوشروان ...

ونحن نستطيع ان نجد بسهولة كثيرا من مظاهر هذه الشيوعية فى حيــاة اباطــرة فارس الساســانيين ، ومن يحكمون الأقاليم باسمهم ...

---

(١) الطبرى تاريخ الأمم والملوك ٢/٦١ .

— فبهرام جوبين ... كان متزوجا بأخته ...

— ويزدجرد الثانى ... كان متزوجا من بنته ...

— وفى اليمن حيث حمـير العربيـة المجوسية الفارسـية الحضارية ... وجد « لخنيعة ذى شناتر » الذى وصل الى حكم حمير « بالأسلوب الانقلابى » — فعمل فى ابناء الملوك عمل قوم لوط « فكان يرسل الى الغلام من ابناء الملوك فيقع عليه ، لئلا يملك بعد ذلك »(١) .

ولم يقتله الا « ذو نواس » الذى ملك بعده .. وقتل « اصحاب الأخدود » فى المأساة العقائدية المعروفة !!

* * *

ويدخل فى اشعاعات هذه الفوضوية ... الأديان التى اتخذت شكلا آخر ، قد يختلف فى فروعه ، لكن جوهره لا يختلف فى حقيقته عن الطبيعة المادية الفوضوية لأديان فارس ...

فالديانات الثلاث التى سادت الصين — والهند — كانت فى هذا القرن بالذات قد تحولت الى وثنيات واضحة ... وفقدت بعض بساطتها التى صاحبت نشأتها ، فديانة « لاوتسو » — التى كانت كالمانوية فى فارس تدعو الى الزهد — انقلبت — كرد فعل — الى مادية غريزية **مغرقة** ...

— ولم يكن حـظ البوذية أفضل من سابقتها ، فقد طورتها

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٣٠ والطبرى ٢/١٠٢ .

« البرهمية » الانقـــلابية الثائرة(١) ، فأصبحت وثنية مغرقة فى الانحطاط والهبوط .

ـــ واما « الكونفوشيسية » فقد كانت مذهبا عمليا ماديا « اقتصاديا » وليس عقيدة دينية روحية !!

وبايجاز : لقد كانت اشـــعاعات الحضـــارة الفارسية فى مضمونها مادية (شيوعية) مهما تباينت أشكالها .

الانحلالية البيزنطية :

وفى النصف الآخر من العالم كانت تمتد اشعاعات الجناح الآخر ... انها بقايا حضارة « هيلينية » ورومانية ـــ ورثت التراث الرجعى الاغريقى فى اثينا سقراط وارسطو وافلاطون ...

وعلى الرغم من ابتلاع « النصرانية » لهذا العـــالم الهيلينى الكبير ... فان النصرانية لم تدخل باب هذا العالم الاغريقى الوثنى الا بشروط قاسية ابرزها أن تفقد أساسها العقدى (التوحيد) .. وتتحول الى ديانة وثنية تجسيدية ...

وقد تعـــاون (بولس) و (قسنطين) على تكييف النصرانية واخضاعها لهذا المسخ الغريب ، واكبر ما تصاب به حضارة ـــ فى الحقيقة ـــ هى أن تصـــاب فى جوهـــرها الفـــكرى .. اى فى « أيديلوجيتها » فيختلط عليها عقلها وشعورها وتخطيطها السليم للحياة ، وتعاملها المقبول مع الحقائق ، ويتحول فكرها بالتالى حين تصاب فى أساسها العقائدى على هذا النحو ـــ « من فكر صاف

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ٤٤ بتصرف .

واضح يعتمد مقولات عقلية بديهية سليمة يتــدرج على اساسها نحو الحقيقة » ...

يتحول الى فكر ملوث مشوه مغلوط .. يبحث له عن حقائقَ مقبولة وسط ركام الغموض ــ فيلجأ الى ــ معارك الجدل والسفسطة التى تعتمد التأويل المجوج والتلاعب بالألفاظ والمفاهيم كى يصل الى اقرار القضايا المسلمة لديه سلفا .

وعن نصرانية القرن السادس يحدثنا الأستاذ أبو الحسن الندوى فيقول : « ثم ثارت حــول الديانة المسيحية وفى صميمها مجادلات كلامية ، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة . واستهلكت ذكاءها ، وابتلعت قدرتها العملية ، وتحولت فى كثير من الأحيان حروبا دامية ، وقتلا وتدميرا وتعذيبا واغارة وانتهابا واغتيالا، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة ، واقحمت البلاد فى حرب اهلية . وكان اشد مظاهر الخلاف الدينى ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية وبين نصارى مصر ؛ أو بين الملكانية والمنوفسية بلفظ اصح ، فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفسيون يعتقدون أن للســيد المسيح طبيعة واحدة وهى « الالهية » التى تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية ، كقطرة من الخل تقع فى بحر عميق لا قرار له ، وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين فى القرنين السادس والسابع حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى : انها ليست على شىء !!

وسط هذا الجدل .. تذوب معالم الفكر الصافى ، وقوانين الأخلاق العالية ، ويشيع ــ فى عالم الواقع ــ فوضى عالم الفكر .. سواء فى عالم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة ...

وهذا فى الحقيقة — ما سيطر على حضارة الرومان والمناطق المتأثرة باشعاعها الفكرى والخلقى فى عالم القرن السادس الميلادى ..

ضياع العرب بين التيارين :

ماذا فعل العرب فى جزيرتهم أمام هذا الطغيان الجاهل ؟

— وهل كانوا — فى صحرائهم المنعزلة — بمعزل عن تأثير هذه التيارات ؟

ايضا : لماذا اختير هؤلاء العرب ليكونوا محضن الرسالة الجديدة .. ومنطلق نشرها فى ربوع المعمورة ؟

— ان الاجابة على هذه الأسئلة المترابطة تكاد تكون واحدة .... ففى القرن السادس ومطلع القرن السابع كان العرب .. يمثلون — فى الحقيقة انسانا متميزا بين هاتين الحضارتين .

كان الانسان العربى اقرب الى الخير فى جوانب تهم طبيعة الدعوة الاسلامية كرسالة تتطلب نفوسا أقرب الى الفطرة وقوانين الأخلاق .

كانوا يمتازون بالشجاعة ...

والشجاعة بالنسبة للعرب — كانت حاجة فطرية تتطلبها بيئتهم الصحراوية الجدباء التى كثيرا ما تبخل الطبيعة عليها بالمطر سنوات طوالا ، فتضطر القبيلة الى منافسة أصحاب الارض الممطرة على أرضهم — أو تلجأ الى الغزو طلبا للغنائم البديلة ... ونتيجة

سيادة قيم الجاهلية وافتقاد الجزيرة لقيم حضارية تنظم الاقتصاد او الحياة الاجتماعية .... نتيجة هذا كانت الشجاعة مجرد بطولة فردية بدائية ... تتمثل فى النزال والطعان الذى تطور وأصبح خصيصة من خصائص المجتمع الجاهلى تظهر فى قضايا الاجتماع البشرى — فى حياة العرب — كلها .

وكانوا يمتازون بالنجدة والاباء والكرم وحفظ الأعراض وحماية المستجير والبساطة ووضوح الفكر وسلامة الطوية وبكثير من الفضائل البدوية الفطرية ... بالاضافة الى ما عرفوا به من فصاحة فى القول ... تمثلت قمتها فى المعلقات السبع أو العشر ...

وهم من جانب آخر ، وعلى ما فى الأضداد من غرابة — كما يقول سيديو — يتصفون بسفك الدماء وحقنها ، وباعتقاد الخرافات وردها ، وبالايمان والالحاد ، وهم على ما يظهر ذوو فتوة يقدرون بها على القيام بجليل الأعمال عندما يؤمنون بمبدأ جديد ، وهم احرار كرام شم الأنوف ، غضاب مقاديم يجمعون فى مثالهم بين الفضائل والمساوىء الخاصة بقومهم(١) .

ان هذه التناقضات — فى رأى سيديو — ليست فى راينا اكثر من صورة حقيقية مجسمة للرجل الفطرى الذى لا تسيره عقيدة محددة ولا قانون ضابط ، ولا اخلاق حضارية معينة ...

وحكاية عبادتهم للصنم .. فاذا ما جاعوا اكلوه او استخدموه فى اغراض تافهة خير دليل على ذلك ...

ويلخص لنا — الجانب السىء من اخلاقهم — والذى تطور

(١) تاريخ العرب العام ل. ا. سيديو ص ٢٨ ترجمة عادل زعيتر .

واصبح كأنه قانون الحياة فى غيبة القانون الدينى الحضارى ..

يلخص لنا هذا الجانب « جعفر بن ابى طالب » حين تكلم أمام النجاشى واصفا حال العرب قبل الاسلام فقال : « أيها الملك ، كنا قوما اهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الارحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفحشاء وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وامرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام(١) .. الخ » .

فهذا الذى قاله جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ يمثل ملامح الوجه البغيض للأخلاق الجاهلية أو بتعبير آخر يمثل تطبيقا سيئا لأخلاق الفطرة حين لا تجد هذه الأخلاق تعبيرا كريما عنها فتظهر فى صور منحرفة أو معاكسة ...

ويؤكد ملامح هذا الوجه ـ فى تلخيص أيضا ـ مؤرخنا ابن كثير الدمشقى بعد أن ساق ما ساق من حديث رسل المسلمين فى مجلس يزدجرد ، ثم تكلم يزدجرد فقال :

« انى لا أعلم فى الأرض أمة كانت اشقى ولا اقل عددا ولا اسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ليكفوناكم ؛ ولا تغزوكم فارس ؛ ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فان كان عددكم

---

(١) ابن هشام ٣٥٦/١ .

كثير فلا يغرنكم منا وان كان الجهــد دهاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكســوناكم وملكنا عليــكم ملكا يرفق بكم ... » .

وقد عقب على حديثه المغيرة بن شعبة ، بما يؤيد حديثه ، بل بما يجليه أكثر .. فقال :

« ايها الملك انك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا ، واما جوعنا فلم يكن يشبهه الجوع .. كنا نأكل الخنافس والجعــلان والعقارب والحيات ، ونرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فانما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس الا ماغزلنا من أوبار الابل واشعار الغنم ، دبننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وأن يبغى بعضنا على بعض ، وان كان احــدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه .. وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك » .

فالصورة العربية بملامحها المتباينة .. ملامح الخير والشر ترجع الى منطلق واحد هو اخلاق الفطرة .. المزيفة !!.

● عبوديتهم للأصنام على هذا النحو الساذج هى اخلاق فطرة مزيفة .

● شــجاعتهم ونجدتهم وكرمهم وفضائلهم الأخــرى هى اخلاق فطرة متطورة

● وتناقض اخلاقهم ، وتخبطهم الفكرى والدينى .. اخلاق فطرة منحرفة

● وتخلفهــم الاقتصــادى الذى ادى الى اكل الخنــافس

والجعلان والى لباسهم ومنازلهم المتخلفين .. كل ذلك مظهر من مظاهر البدائية الجاهلة ... وأخلاق الفطرة المتخلفة ...

ــ والغريب الملاحظ من الاوصـــاف الثلاثة المذكورة (على لسان جعفر ويزدجرد والمغيرة) انها كلها تجعل للاقتصـــاد قيمة هامة فى تفسير جاهلية العرب ...

فالاقتصاد .. فى كلام جعفر يأتى فى الدرجـــة الثانية بعـــد عبادة الاصنام ..

وفى كلام يزدجرد يبرز كأكبر محرك ــ فى رايه ــ لتفسير خروج العرب من ديارهم ...

وفى حديث المغيرة لا يقل التفسير الاقتصادى وضوحا عنه فى كلام يزدجرد ...

وهذا يدفعنا الى ذكر شيء وجيز عن المكانة الصحيحة لما يروج فى عالم اليوم عن مكانة العامل الاقتصادى فى التاريخ ..

العامل الاقتصادى (المـــادى) والجاهلية :

ولعل وضع الصورة على هذا النحو الذى ورد فى النقول السابقة هو خلاصة اسباب خطأ القائلين بالتفسير الاقتصـــادى للتاريخ ... ان هؤلاء الثلاثة جعفر ويزدجرد والمغيرة يتحدثون عن الجاهلية فيصفونها بقيمها وبمحركات تاريخها ... فالجاهلية مرحلة متخلفة تعتمد على التفسير الاقتصادى فى حركتها ... انه فعلا اكبر العوامل فى تفسير جزئياتها وروحها العـــامة ، انهـــا تصاحب الانسان فى رحلة طفولته .. فى مرحلة ما نسميه (أخلاق

الفطرة) ... لكن حين تزحف قيم حضارية انسانية كبرى .. تتضاءل قيمة الاقتصاد ويصبح عاملا خامسا او سادسا من العوامل المؤثرة فى مسيرة « الانسان العقيدة والانسان الحضارة » ...

وجعفر والمغيرة — رضى الله عنهما — كانا من طلائع الممثلين لقيم حضارة الاسلام الكبرى . هؤلاء الذين لم يخضعوا لكل الحرمان من اموالهم فى مكة ، ومع العيش ثلاث سنوات فى سجن قريش ..

* * *

« ان الاقتصاد مهما كانت نوعيته المذهبية هو تجسيم لحضارة ، على شرط ان نجددها — اى الحضارة — كمجموعة الشروط المعنوية والمادية التى تتيح لمجتمع ما أن يقدم جميع الضمانات الاجتماعية لكل فرد يعيش فيه ، فهذا التحديد الوظيفى — للاقتصاد — يجعلنا نرى فى الحضارة جانبين : الجانب الذى يتضمن شروطها المعنوية فى صورة ارادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها ، والجانب الذى يتضمن شروطها المادية فى صورة امكان ، اى انه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته ، اى بالوظيفة الحضارية(١)» .. !!

وحين تكون الحضارة فى مرحلة ذبول واجترار لمعطيات الماضى.. يكون للاقتصاد الدور الريادى فى حياة أفراد الحضارة ... لكنه اقتصاد عاجز استهلاكى ... يحرك الأفعال كسبب ، وتنتهى اليه القيم والسلوكيات كغاية ، انه البداية والنهاية . وليس ثمة انسان يحرك او يوجه او يبدع وسط طوفان المادة التى تمثل فى هذه الحالة بتعبير موجز (سبب الايجاد وغاية الوجود ..) .. !!

(١) المسلم فى عالم الاقتصاد ص ٧١ للأستاذ مالك بن نبى .

وفى الحـــالة الأخـــرى ... حالة الابداع والتفوق الفكرى والانسانى كحالة بناء الأمة الاسلامية فى مراحلها الثلاث : الفرد والدولة والحضارة .. التى سنتناولها — فى مرحلتها المثالية — عبر الصفحات التالية باذن الله ... فى هذه الحالة يبدأ التغير من داخل الانسان : **(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) ..** ولا يمثل الاقتصـــاد الا درجة متأخرة فى ترتيب العوامل المحـــركة للتطور : « فالأمة الاسلامية فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم انطلقت من نقطة الصفر من حيث الامكان (الاقتصاد) فلم يكن لديهـــا شىء للاضطلاع بمهماته الجسيمة فى المجـــال الاجتماعى والسياسى والعسكرى على حد سواء »(١) .

وكمثل مضاد ... يكشف بوضوح هذه القيمة للاقتصاد فى مرحلتى التخلف والتقدم ننظر الى العالم العربى الآن وما فيه من وفرة اقتصادية ، بلغت من التضخم حد اقلاق العالم الرأسمالى .. (وان كان قلته مغرضا) .. لكن هذه الثروة المادية التى يمتلكها العالم العربى والتى لا مجال للشك فى ضخامتها لا تفعل شيئا يعادل قيمتها فى مجال الابداع الحضارى والتقدم المنشود ، بل انها — نظرا لفوضوية توزيعها وبدائية استهلاكها وتوجيهها للبناء الشكلى ، وليس الحقيقى — بل ان هذه الثروة فى ظل هذه الخصائص تمثل فى نظر كثير من علماء التاريخ والحضارة مرحلة ضائعة فى طريق البناء الحضارى للعالم العربى !!

* * *

لقد ساد الضياع الفكرى والظلام العقدى شـــبه الجزيرة العربية على امتداد أركانها عبر تلك القرون التى سبقت البعثة المحمدية . وان ما يحاوله بعض المؤرخين ذوى النزعة القومية من صنع لون من التحضر الفكرى أو التنظيمى للعرب ، معتمدين على

(١) المسلم فى عالم الاقتصاد « مالك بن نبى » ص ٧٢ .

قيام بعض الانظمة فى بعض ارجاء الجزيرة لهو لون من فرض الرأى على الحق والمذهب على المنهج .

اما دول اليمن التى وردت فى القرآن ، والتى امتدت فى الجوف الممتد من نجران الى حضرموت(١) ، سواء كانت الدولة « المعينة » التى قامت فى الشمال والوسط اليمنى او مملكة « سبأ » التى ورثت المعينيين ارضا وحكما وادارة وفكرا ... اما هذه الدول فمع التنويه بالوثنية المغرقة والتصورات الساذجة التى عاشت فيها فان ما خلفته من بعض مظاهر التحضر كان قد اندثر قبل الاسلام بفترة لا تقل عن ثلاثة قرون ..

وينسحب هذا الاندثار على تلك الدويلات التى ظهرت فى اطراف شبه جزيرة العرب الشمالية الغربية والشمالية سواء دولة الأنباط التى انتهت فى بداية القرن الثانى للميلاد (١٠٦ م) أو تدمر الوثنية الهيلينية التى سقطت امام الرومان مع بداية القرن الثالث الميلادى ، أو المناذرة أو الغساسنة الذين لم يكن ملوك الأولين منهم اكثر من تابعين أو موظفين لدى الايرانيين الساسانيين فى فارس ، كما لم يكن ملوك الأخيرين أكثر من مأجورين لدى البلاط البيزنطى . وعلى كل فقد كانت الفوضوية هى القانون ، والتملك هو العرف الأخلاقى ، والظلم هو القاعدة ، والوثنية هى العقيدة المسيطرة على شبه الجزيرة كلها ، بل ان تاريخ العرب فى شبه الجزيرة يكاد يرتبط بتاريخ « الأصنام والأوثان » التى اشهرها « اللات والعزى ، ومناة ، وهبل ، وأساف ، ونائلة ، وبعل ، وود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، ومناف ، والغلس ، والشعرى » وذلك فى منهج كثير من دارسى تاريخ العرب قبل الاسلام .

---

(١) انظر موجز تاريخ العرب والاسلام للدكتور حسين قاسم ص ١٠٥ وما بعدها وانظر مختصر سيرة الرسول لشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ص ١٧ وما بعدها .

الجاهلية تبحث عن النور :

لم يكن تراب الجاهلية مستسلما لمخدر الضياع كل الاستسلام راضيا كل الرضا عن هذا الهمود المنحرف الذى يسود الحياة فى الجزيرة العربيـــة ... التى تمثل « اخـــلاق الفطرة » ابرز ملامحها .....

ولم يكن لدى الفرس او الروم دين صحيح شامل عالمى قوى مؤثر ـــ لقد كان الدين بالنسبة اليهما جزءا من ملامح الشخصية الحضارية وعنصرا واحدا من عناصر القومية ، ولم يكن ـــ فى ظل انحدارهما وانحرافهما ـــ حضارة كاملة تحـــدد هى التعامل مع الأشياء .. وتضفى على القيم لونها الخاص ..

وبالتالى .. فكان اليهود يتعصبون لدينهم تعصبا قوميا محدودا قاصرا ، وكانت القبائل العربية تنظر الى الدين نظرتها الى عنصر من عناصر التراث .. يقولون فى مجال رفضهم لمناقشة ابعاد العقيدة الجديدة : « انا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » ويهددون من يسلم : « تركت دين آبائك .. لنسفهن حلمك .. الخ » فهو فى تصورهم ليس اكثر من قيمة من قيم التراث الذى ورثوه عن الآباء والأجداد ، وهو غير مؤثر فى الحيـــاة الاجتماعية والفكرية لهم الا فى هـــذه الحـــدود .

وتؤكد لنا قصص الحنفاء والباحثين عن دين حق .. تلك التى برزت فى غير واقعـــة من وقائع جاهلية الجزيرة العربيـــة الأولى .. تؤكد لنا هذه القصص فى مضمونها الأخير حالة عـــدم الرضا الذى كان يقبع خلف تراب الجزيرة الذى كان يبدو هادئا ..

كما تصور لنا هذه القصص مدى القلق والتيه النفسى والفكرى الذى كان يهيمن على العقلاء فى أرجاء الجزيرة .. يحدثنا ابن

هشام(۱) عن ابن اسحق فى ذكر عيد من أعياد قريش وما كان من أمر بعض الحائرين فيقول :

واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، ويخرون له ويعكفون عنده ، ويديرون به .. وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة يوما ، فخلص منهم اربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض :

تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض !

قالوا : أجل . وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ...

فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شىء !! ..

لقـد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم .. !! ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع !! يا قوم ، التمسوا لأنفسكم دينا ، فانكم والله ما انتم على شىء !!.

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم .. » .

ويواصل ابن اسحق تتبعه للمسيرة الفكرية لهؤلاء وما وصلوا اليه فى رحلة بحثهم عن الحقيقة :

« فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية » وكان من امره فى بداية الاسلام — مع رسول الله عليه الصلاة والسلام — ما يعتبره البعض دخولا فى الاسلام .

---

(۱) القصة فى ۲۳۷/۱ وما بعدها من كتاب السيرة النبوية لابن هشام تحقيق السقا وآخرين .

«وأما عبيد الله بن جحش .. فقد استبدت به موجة الضياع ... فأقام على ما هو عليه من الالتباس .. حتى اسلم ، ثم هاجر الى الحبشة .. فلما قدمها تنصر حتى هلك نصرانيا » .

« وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر .. فتنصر — وحسنت منزلته عنده » .

« وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية — وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة ، وقال : اعبد رب ابراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه ، ثم مات قبل أن يظهر الاسلام وهو القائل :

اربا واحدا ام الف رب
ادين اذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا
كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى ادين ولا ابنتيها
ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولكن اعبد الرحمن ربى
ليغفر ذنبى الرب الغفور

ويعتبر ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل قمة الشعور بالمأساة . مأساة الفراغ والضياع والتيه التى سادت الجزيرة العربية وسادت العالم كله فى ظل اشعاعات الحضارتين المنهارتين : الشيوعية الفارسية ، والانحلالية الرومانية .

* * *

حياة محمد ﷺ فى الجاهلية

حياة محمد صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية

موطنه ونسبه :

فى مكة : حيث البقعة الوسط من العالم ، وحيث المركز والقلب منه (١) نشأ محمد عليه الصلاة والسلام افضل ما تكون النشأة والمولد .

نشأ أميا .. وعاش أميا .. بين قوم اميين مجردين من اى رصيد ثقافى أو أية خلفية حضارية مؤثرة ، والقرآن يوضح هذه الحقيقة بجلاء : ((**هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين**))(٢) ...

واميته ... وظهوره بين قوم مغرقين فى الأمية ... حكمتان من حكم الله سبحانه ، حتى تكون معجزة النبوة والشريعة الاسلامية واضحة فى الأذهان لا لبس بينها وبين الدعوات البشرية المختلقة .

ذلك أن الريبة كان فى الامكان أن تدخل صدور الناس اذا ماراوا النبى عليه الصلاة والسلام متعلما مطلعا على الكتب القديمة

---

(١) أثبت الدكتور المهندس حسين كمال الدين — بالرسم الهندسى للعالم — أن مكة هى المركز والقلب منه حقيقة جغرافية هندسية وليس ادعاء عاطفيا . تراجع كتبه : منحنيات القبلة ، ومواقيت الصلاة واتجاهات القبلة .

(٢) الجمعة : ٢ .

وتاريخ الأمم البائدة وحضارات الدول المجاورة . كذلك يخشى من دخول هذه الريبة اذا ما ظهرت الدعوة الاسلامية بين امة لهـا شأن فى الحضارة والمدنية والفلسفة والتاريخ ، كدولة الفرس او اليونان او الرومان ، اذ رب مرتاب مبطل يزعم أن الدعوة حصاد سلسلة من التجارب الحضارية والأفكار الفلسفية التى تطورت ، وانتهت الى مثل هذه الحضارة الفذة وهذا التشريع الكامل(١) .

وكما اختاره الله سبحانه من مكة . . قلب العالم ، وكما اختاره أميا من أمة مغرقة فى الأمية ، كذلك اختاره سبحانه من خلاصة سلسلة نسبية لا لبس فيهـا ، ولا غموض حولها ، ولا طعن فى صفائها وطهارتها . فهو عليه السلام كما تحـدث عن نفسه فى الحديث الذى رواه مسلم بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنـانة ، واصـطفى هاشـمـا من قريش ، واصـطفانى من بنى هاشـم » .

وهو من جهة أبيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ويدعى شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف واسمه المغيرة بن قصى ويسمى زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان ، وعدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السـلام .

اما من جهة أمه فأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة

---

(١) انظر : د. سعيد رمضان البوطى : فقه السيرة ص ٣٠ ، ٣١ بتصرف .

ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، وامها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر .. وامها برة ام حبيب بنت اسد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب بن مرة(١) ....) .

قال ابن هشام :

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف ولد آدم حسبا ، وافضلهم نسبا من قبل ابيه وامه صلى الله عليه وسلم(٢) .

وقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم — على أرجح الأقوال — والعالم كله يتخبط فى دياجير الظلام ، ينتظر المنقذ ، وكانت كل الارهاصات تومىء بوضوح الى ان نبيا سيظهر قد حان مولده .

المقياس التاريخى للعظماء(٣) :

تمثل حياة العظماء — قبل بروزهم — مجموعة مواقف كبيرة تنتهى الى نقطة البداية التى يبدأ عندها التاريخ البشرى فى تسجيل كل جزئية من جزئيات حياتهم !!

ان عظيما ما لا يستطيع هو نفسه ، ولا يستطيع التاريخ بالتالى ان يحصى كل تفصيلات حياته ، قبل أن يثبت انه من الصفوة المختارة التى تستحق الاهتمام والتقدير ...

---

(١) ابن هشام السيرة ١١٥/١ .

(٢) الموضع السابق .

(٣) نحن نرد بهذا المقياس ونسرد وقائع حياته صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية على دعوى المستشرقين غموض حياة النبى قبل البعثة .

لننظر فى حياة اى بطل من ابطال البشرية الكبار ... ماذا نعرف عنهم قبل أن يظهروا على مسرح التاريخ ، بل انهم لو سألوا انفسهم عن السنوات الطويلة التى مرت من حياتهم قبل تقلدهم دورهم التاريخى — لما تذكروا شيئا ذا بال ...

— كم نعرف مثلا عن الأنبياء الذين سبقوا محمدا قبل ان يبعثوا ؟.

— كم نعرف عن نوح .. الذى عاش الف سنة الا خمسين عاما ؟

— كم نعرف عن صالح وشعيب ولوط وهود ؟.

— والرسولان .. اللذان سبقا محمدا ، ولازال لهما اتباع . ماذا نعرف عنهما ؟

— كيف عاش موسى فى قصر فرعون ؟ وكيف كانت تربيته ؟ وكيف اتصل بقومه بنى اسرائيل ؟ والسنوات التى أمضاها فى أرض « مدين » راعيا لأغنام شعيب كيف أمضاها ؟

— وتقول التوراة انه لم يعد من مدين الا بعد بلوغه الثمانين ، وانه على اثر مدة التيه كان موسى قد بلغ مائة وعشرين سنة .. ما معلوماتنا عن موسى خلال هذه الرحلة الطويلة ؟

— وعيسى — عليه السلام — ما معلوماتنا عن الثلاثين سنة التى قضاها قبل أن يبعث ؟ ان هناك سبعة عشر عاما مجهولة تماما — للتاريخ — من حياة المسيح ؟ ومعروف أنه لم يظهر للتاريخ بعد البعثة الا مدة ثلاث سنوات ، هى كل معلوماتنا عن حياة

المسيح !! واكثر من ذلك ، فقد انتهى التحقيق بالباحثين والمحققين واصحاب الاختصاص فى الزمن الأخير — الى ان المعلومات المؤكدة الواضحة عن حياة عيسى عليه السلام لا تتجاوز اخبار خمسين يوما من حياته لا اكثر ولا اقل ، لدرجة ان القس الدكتور « شارلس اندرس اسكات » يذكر فى مقال له بدائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة مجلد ١٣ ص ١٧١ — ما نصه :

« ينبغى ان يتنازل الانسان عن محاولة وضع كتاب فى سيرة المسيح بكل صراحة ، فانه لا وجود للمادة من المعلومات التى تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والايام التى توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوما(١) » .

وايضا اصحاب الرسول الكبار — رضى الله عنهم — ماذا نعرف عنهم قبل ان يدخلوا التاريخ من باب الاسلام العظيم ؟ .. ماذا نعرف عن عمر وابى بكر وعثمان وابى هريرة قبل الاسلام ؟

ان معلوماتنا عن كل هؤلاء تبلغ من الندرة حدا لا يملأ الا بعض الأسطر لكل منهم .. قبل أن يظهروا على مسرح التاريخ !!

اننى لا اتصور ان معلوماتنا عن حياة الرسول — عليه الصلاة والسلام — قبل بعثته الشريفة ، يعتورها نقص أو صعوبة ما !!

اجل .. انا لا اتصور ذلك ، على عكس ما يذهب اليه اكثر المستشرقين واكثر المستغربين ..

واتصور — بالتالى — أن عمل التاريخ ، ليس تتبع كل جزئية

---

(١) انظر ابو الحسن الندوى : النبى الخاتم نشر المختار الاسلامى ص ١٣ .

من كل دقيقة فى حياة العظماء قبل ان يبدءوا دورهم التاريخى !!
ان التاريخ مكلف فقط بأن ينقل الى الناس كل ما يهمهم من هذه الجزئيات ، وما يتصل اتصالا وثيقا بمرحلة بروزهم ، وبتشريعاتهم السلوكية العملية !!

وعلى هذا الأساس — تقاس حياة العظماء قبل ان تصبح كل كلمة من كلماتهم وكل موقف من مواقفهم — تحولا أو رؤية جديدة فى حياة امتهم أو فى مسيرة التاريخ البشرى كله !!

حياة متميزة واضحة :

والأحداث والمواقف الكبرى ، فى حياة الرسول — عليه الصلاة والسلام — قبل أن يبعث ، يمكن ان نوجزها — فى ظل هذا الوعى بطبيعة وظيفة التاريخ — فى المعالم التالية :

● فى العام الميلادى ٥٧١ (عام الفيل) ولد الرسول عليه الصلاة والسلام يوم (الاثنين ١٢ من ربيع الأول)(١) .

● مات والده — عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم — والرسول فى بطن أمه . على أصح وارجح الروايات !! وكان من أعظم الحوادث فى السنة الأولى من مولده انشقاق الايوان وقصة الفيل ويوم جبلة لعامر عبس على ذبيان وتميم .

● وحتى السنة الخامسة من عمره عاش فى بادية بنى سعد ، يلعب آنا ، ويرعى الغنم آنا آخر مع أخيه من الرضاعة (عبد الله ابن الحارث) وربما مع بقية اخوته من الرضاعة (الشيماء وانيسة) !!

---

(١) ابن هشام السيرة ١٦٧/١ .

● وفى هذه السنة ... شق صدره على نحو ما سجلت كتب السيرة ، وعلى نحو ما ورد فى صحيح مسلم . ولا اعتبار للشك فى هذه الواقعة الا اذا تشككنا فى كثير من المعجزات .

● وعاد الى أمه فعاش معها نحوا من عام .

● ثم ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره ، حين ذهبت لزيارة قبر زوجها « عبد الله » بالمدينة ، فماتت اثناء عودتها ، ودفنت فى مكان يسمى « الأبواء » .

● وقد كفله بعد وفاة والدته – جده عبد المطلب ، حتى السنة الثامنة من عمره .

● وفى السابعة اصيب بالرمد ، وعالجه كاهن اكتشف نبوته واوصى به جده خيرا .

● ورعاية جده عبد المطلب له معروفة مشهورة بصورها المختلفة .

● وفى السنة الثامنة من عمره توفى هذا الجد الطيب الوقور ، فكفله عمه أبو طالب من بين عمومته الكثيرين .. نظرا لانه اقرب اعمامه اليه ، فهو اخ لأبيه من ناحية امه وابيه معا ، وامهما كانت فاطمة بنت عمرو بن مخزوم (جدة الرسول عليه السلام) .

● وفى الثانية عشرة من عمره الح على عمه ابى طالب ان يأخذه معه فى رحلة التجارة الى الشام .. فأخذه ، ووقعت له قصة مع بحيرى الراهب .. وهى قصة صحيحة رواها الترمذى ، وقال : انها حديث حسن .

وبحيرى الراهب .. كان قارئا للكتب المقدسة القديمة .. فلا مانع أن يعرف أوصاف النبى الذى تنبأت به هذه الكتب .. وليس ما يسوغ عقليا رفض هذه القصة .

● وفى بيت عمه كان يرعى الغنم أيضا .. اذ كان أبو طالب كثير الأولاد فقيرا ...

● وفى الخامسة عشرة من عمره شارك فى حرب الفجار .. التى اندلعت فى الأشهر الحرم بين قريش ومن معها من كنانة .. وبين هوازن ومن معها من قيس عيلان ، والتى يرجع سببها الى أن عروة الرجال من عامر بن صعصعة من هــوازن أجار لطيمة (تجارة) لنعمان بن المنذر ملك الحيرة .. فقتله أثناء حمايتها — فى الأشهر الحرم — البراض بن قيس من كنانة ... فوقعت الحرب بين القبيلتين وانتهت بنصر كنانة — على قيس — .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها : « كنت أنبل على أعمامى : أى أرد عليهم نبل عدوهم اذا رموهم بها(١) » .

● وفى التاسعة عشرة من عمره هلك هرمز بن كسرى وولى ابنه أبرويز .

● وفى العشرين من عمره — عليه السلام — شهد فى بيت عبد الله بن جدعان (حلف الفضول) الذى تداعت فيه قبائل من قريش (بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة ابن كلاب ، وتيم بن مرة) فتعاقدوا على الا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته(٢) .

---

(١) ابن هشـــام ١ — ١٩٨ .
(٢) المرجع السابق ١٤١ .

وسبب هذا الحلف أن « العاص بن وائل » لم يعط رجلا من زبيد ثمنا فى بضائع اشتراها منه .. فاستجار الرجل بأريحية قريش فكان هذا سبب الحلف ، وقد شهده الرسول ، وقال فيه :

« لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت »(١) .

● وكان العام الخامس والعشرون من عمر النبى تحولا كبيرا فى حياته ، اذ كان هذا العام حافلا منذ بدايته بما يشير الى ان ثمة امرا سيحدث ، فان خديجة بنت خويلد — ذات الشرف الرفيع والمال الكثير فى مكة — قد عرضت على محمد — نتيجة ما سمعت من صدقه وامانته — ان يتاجر لها بمالها ، وتعطيه أفضل ما أعطت غيره ؛ وقبل محمد — عليه السلام — وخرج مع غلامها ميسرة الى الشام ... وعاد بربح وفير وسمعة حسنة حملها ميسرة الى سيدته ، مما دعم رأيها فيه ، وجعلها تتقدم هى اليه بواسطة صاحبتها « نفيسة بنت منبه » طالبة الزواج منه ، وكلم الرسول فى ذلك اعمامه ، فوافقوا وخطبوها له من عمها عمرو بن أسد .. وتم زواجه بها .

● وفى الخامسة والثلاثين من عمره — صلى الله عليه وسلم — جددت قريش بناء الكعبة ثم ارادت أن تضع الحجر الأسود فى مكانه ، فاختلفت القبائل فيما بينها . حتى كادت الحرب أن تشب بينها ، بعد أن اقسمت بنو عبد الدار على الموت ، ووضع ابناؤها ايديهم فى جفنة من دم متعاهدين مع بنى عدى بن كعب على الموت .

وتدخل أبو اميه بن المغيرة .. فاقترح أن تجعل القبائل حكما

---

(١) السيرة ١ — ١٤١ وانظر : الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ١/١٠٠ .

بيتها اول داخل من باب المسجد .. فكان الرسول اول داخــــل عليهم .. فلما رأوه قالوا : هذا الأمين .. هذا محمد فقضىٰ الرسول باحضار ثوب يوضع الحجر الأسود فيه تأخذ كل قبيلة بطرف منه ... الى أن بلغوا به موضعه فوضعه هو بيده .. كأنما كانت السماء توليه امر مستقبل الكعبة فى هذه اللحظة . ونجح الرسول ـــ بحكمته هذه ـــ فى ازالة ضغائن كان من الممكن ان يستعر أوارها فى المستقبل ان حكم حكما آخر ممالئا لبنى هاشم مثلا .. كما أنه قضى على فتنة كادت تنشب بين القبائل فى الحال !!

* * *

اننا نستطيع أن نطمئن كل الاطمئنان الى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان خلال هذه الفترة التى امتدت خمسة عشر عاما ـــ يقيم فى مكة ، فى بيت خديجة .. ويقوم بواجباته العائلية والاجتماعية فى الحدود التى تتفق مع نزعته الأخلاقية والانسانية الكريمة ...

● ولم يصح انه ـــ عليه السلام ـــ خرج من احواز مكة الى اى مدينة اخرى ، كما لم يصح انه عليه السلام تعلم شيئا من فنون القراءة والكتابة .. والا لمـــا احتاج عليه السلام الى كتاب للوحى بعد النبوة .. ولما استطاع عليه السلام أن يتلو بأعلى صوته على المشركين ـــ الذين يتلمسون الى شخصيته كل منفذ يستطيعون الولوج منه ـــ تلك الآيات التى تتحدث عن أنه « أمى » وتلك التى تقول احداها بوضوح : « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون** » .....!!.

● ونستطيع ايضا ان نطمئن الى انه عليه السلام ـــ عاش هذه الخمس عشرة سنة .. حيـــاة اب وزوج .. مخلص لبيته

ولعائلته .. مؤثر للعزلة .. مكون من هذا البيت جزيرة نورانية وسط بحار الجاهلية المظلمة .. هذا الزوج — عليه السـلام — عرف عنه الاخلاص الشديد لزوجته الأولى التى تسبقه فى العمر بخمسة عشر عاما ... وظل وفيا لها بعد مماتها ، وهذا الأب — عليه السلام — كان يرعى هذه الأسرة ، فيزوج من بناته من تبلغ سن الزواج — خلال هذه الفترة — فزينب تزوجت من أبى العاص ابن عبد شمس ابن خالتها — ورقية وام كلثوم تزوجتا من عتبة وعتيبة ابنى ابى لهب — وايضا .. يشيع — بقلب مكلوم راض وعين باكية من يتوفاه الله من ابنائه .. وقد شيع ابنه القاسم وعبد الله الى مثواهما الأخير خلال هذه الفترة ايضا .

ومع اننا نرجح انه — عليه السلام — كان خلال هذه السنوات وبتأثير سمعته الأخلاقية .. وخبرته — قد اصبح المستشار التجارى والأخلاقى لأهل مكة . كما اننا نرجح انه كان ايضا مشرفا على تجارة زوجته خديجة(١) .

مع اننا نرجح هذا الا اننا نوقن ان هذا النشاط التجـارى والاجتماعى لم يكن هدفا له ، ولم يحتل جانبا مهما من حياته ، وبالتالى فلم يمنعه من أن « يتحنث » فى بيته وفى غار حراء ... بعيدا عن صخب الحيـاة وزيف الاوضاع الجاهلية .. فقد كان التأمل والهدوء طبعا فيه عليه السلام .

والمرجح انه كان يتحنث على دين ابيه ابراهيم ... ولا فرق بين دين ابراهيم ونوح وموسى وعيسى — بالنسبة لنوع العبادة التى ينتهجها مفكر فى خالق الكون باحث عن الحقائق الكبرى الكلية .. ولا مجال بالتالى لأى خلاف حول هذه القضية(٢) ، اذ انه عليه

(١) دولة الرسول فى المدينة ٣٢ .

(٢) انظر هيكل فى حياة محمد ص ١٣١ وعصر الرسالة ص ١٩١ للدكتور على جبية والأستاذ على الجمبلاطى والتونسى فى محمد نبى الانسانية ص ٨٥ .

السلام لم يكن يمارس شعائر دينية يمكن أن تنسب الى دين معين ، وانما كان يمارس تطهيرا للنفس وتفكيرا فى عظمة الخالق وفيما وراء هذا العالم الظاهر ، وفى اختلال الاوضاع والقيم التى تسيطر على المجتمعات الجاهلية العالمية سواء فى المجتمع الفارسى او المجتمع الرومانى او فى داخل الجزيرة العربية الضائعة فى ذاك الحين .

انه يمارس عبادة دعت اليها الأديان السماوية كلها .. !!

أخلاق حنيفية عالية :

● ونحن نعلم من أخلاقه عليه الصلاة والسلام انه ما شارك فى لهو قط ، وما شهد سمرا .. اللهم الا مرتين هم فيهما — بالاستماع — لكن الله حال بينه وبين ذلك .

● ونعلم — أيضا — انه لم يسجد لصنم قط ، ولم يشرب الخمر ، ولم يقترف اثما من مآثم الجاهلية ، وكان محافظا على حيائه ووقاره ..

... ويروى انه قال : « لقد رايتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى ، واخذ ازاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فانى لأقبل معهم وادبر ، اذ لكمنى لاكم ما اراه لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك ازارك ، قال فأخذته وشددته على ، ثم جعلت احمل الحجارة على رقبتى وازارى على من بين اصحابى »(١) .

---

(١) ابن هشام ١ — ١٩١ .

● ويوجز ابن هشام — حين نتابعه — حياة الرسول فى الجاهلية .. فيقول : « شب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من اقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا ... فكان افضل قومه مروءة واحسنهم خلقا ، واكرمهم حسبا ، واحسنهم جوارا ، واعظمهم حلما ، واصدقهم حديثا ، واعظمهم امانة ، وابعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما .. حتى ما يسمى فى قومه الا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة(١) .

● ان خديجة رضى الله عنها لم تختره زوجا الا لتفوقه فى الأخلاق .. صدقا وامانة وحلما .

● وهؤلاء الصحابة الذين اتبعوه — عاشوا معه فى الجاهلية ، وكان منهم من توقيره وطاعته ما يندر مثله فى التاريخ ، فلو كان ثمة علامة استفهام غامضة فى حياته .. أو لو كان ثمة مثلب يؤخذ عليه لبرز خلال فترة الدعوة او بعدها .

● وحتى اعداؤه ... قالوا فيه الصدق ، وهم يحاربونه ويتآمرون على دعوته .. بعد أن تآمروا على قتله شخصيا .. فأبو سفيان — رغم عدائه الواضح للرسول — يشهد امام هرقل بأن الرسول من أوسطهم نسبا ، وبأن الذين يتبعونه لا يفارقونه ابدا ، وبأنه لا يكذب ولا يغدر(٢) .

وفى اجتماع من اجتماعات قريش يتكلم النضر بن الحارث — العدو اللدود للرسول — فيقول لعظماء قريش : يا معشر قريش نفد اعياكم أمر محمد وعجزتم عن أن تروا فيه رأيا لما اصابكم به .

(١) المرجع السابق .

(٢) الطبرى ٣ — ٥٦ وقد وردت القصة فى البخارى ومسلم ايضا .

ان محمدا قد نشأ فيكم حتى بلغ مبلغ الرجال وكان أحب الناس اليكم واصدقهم فيكم واتخذتموه امينا ، فلما وخطه الشيب وعرض عليكم هذا الأمر قلتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون . تالله لقد سمعت كلامه فليس فيه شيء مما ذكرتم(١) .

وكفار مكة هـؤلاء ــ رغم عدائهم له ــ يترك بعضهم عنده امانتهم ، ويضطرونه ــ بحكم اخلاق رسالته ــ أن يخلف على بن ابى طالب بالبقاء بعده فى مكة لايصال الامانات الى اهلها بعد أن يهاجر هو وابو بكر الى المدينة .

● وناهيك باخلاص اصدقائه ــ اخلاصا يتجلى فى قولة ابى بكر الصديق حين قيل له : ان صاحبك يزعم أنه عرج به الى السماء .. فقال على الفور : « ان كان قال فقد صدق » .

● وقد كانت أمامهم فرص كثيرة للحكم عليه ومعرفة حقيقته الأخلاقية .. فهو لم يكن يتعامل معهم تعامل ملك مع رعيته ، وانما كان كواحد منهم « دائم الخلطة لهم فى طعامهم وشرابهم وصلاتهم ومجالسهم ، فهو عليه السلام كان يحب البساطة والصراحة ويكره التكلف ، وبعض الصحابة خالط الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل النبوة وبعدها عشرات السنين » .

● وهؤلاء الأصحاب لم يكونوا أغرارا ولا منعزلين عن العالم، بل بعضهم من مكه التى كان العرب سنويا يقصدونها للحج ، وتسلم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة ، بخلاف صلات أهلها بواسطة التجارة مع اليمن والشام حيث مراكز الحضارة .

---

(١) عن الرسالة المحمدية ص ١١٦ للسيد سليمان الندوى .

● كما أن هؤلاء الأصحاب أثبتوا فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولا وأكثرهم دهاء وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم بدليل أنهم نجحوا — رغم محدودية وسائلهم — فى ضم أعظم الدول المتحضرة(١) .

ان حياته — صلى الله عليه وسلم — قبل البعثة لا يمكن أن تكون نقيضا واضحا لحياته بعد البعثة .

وحياته عليه السلام كانت كلها معرضة لعداء المشركين ، وقد حاربوه بكل الوسائل .. فلو وجد غموض ما فى حياته .. لاستغله المشركون اسوأ استغلال .

● ولقد وجد بعض الكارهين — فى المجتمع الجاهلى نفسه — لبعض القيم الجاهلية وهم الذين عرفوا بالحنفاء ؛ لكن واحدا من هؤلاء لم يبلغ جزءا من الف جزء مما بلغه كمال الرسول صلى الله عليه وسلم الخلقى والنفسى ، حتى صار مضرب المثل — بين أهل مكة — فى هذه الجوانب .. وقد اتبعه بعض هؤلاء أنفسهم ، وقال له ورقة — وهو أحد كبار الحنفاء — : « والذى نفسى بيده انك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ، ولتؤذينّه ، ولتخرجنه ، ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه »(١) .

* * *

---

(١) سعيد حوى « الرسول » ١ — ٢٤ .
(٢) ابن هشام السيرة ١ — ٢٥٤ .

محمد بن عبد الله ... نبيًا ورسولًا

محمد بن عبد الله .. نبيا ورسولا

الوحى .. الظاهرة والتحليل :

كانت السنوات التى سبقت بلوغ محمد عليه السلام الأربعين من عمره سنوات تحنث وتجرد من أوزار الصراع المادى والقبلى ..

كان محمد يبدو وكأنه مرآة انسانية شفافة .. ترى الأشياء دون أن تتلوث بها وتسير فى ركابها .. أو ترتبط بها .

وكان قد حبب اليه الخلاء فى غار حراء ، يمكث فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يعود الى خديجة ، فيتزود من ضروريات الحياة .. ثم يعود لمثلها .

وظل على ذلك حتى بلغ الأربعين من عمره ففجأه الحق وهو غائر(١) .

روى ابن اسحاق عن الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها حدثته : أن أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه الا جاءت كفلق الصبح . قالت : وحبب الله تعالى اليه الخلوة فلم يكن شىء أحب اليه من أن يخلو وحده(٢) .

---

(١) ابن الجوزى : الوفا ١٦٢/١ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٤٩/١-٢٥٠ .

« فلما كان الشهر الذى اراد الله فيه ما اراد من كرامته ، وذلك الشهر هو شهر رمضان (يناير ٦١١ م) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى اذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءنى جبريل ، وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أقرأ ؟ قال : فغطنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : فغطنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك الا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ... فكأنما كتبت فى قلبى كتابا .. قال ، فخرجت حتى اذا كنت فى وسط الجبل سمعت صـوتا من السـماء يقول : يا محمد أنت رسـول الله وأنا جبريل .. (١) » .

وتلك كانت اول تجربة لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام مع الوحى .. وهى تجربة كان لها صداها الكبير على نفسه وفكره ، وقد كان لزوجته الوفية خديجة بنت خويلد الدور البارز خلال أحداث هذه التجربة النفسية والفكرية التى عاشها محمد النبى بعد أن فجاءه جبريل بالوحى ، وهى تجربة اوردتها كتب السيرة والسنة بتفصيل كاف .

* * *

ان العلمانيين والمـاديين وأشباههم يرفضـون « الوحى »

(١) انظر السيرة لابن هشام ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ والوفا ١٦٢/١ لابن الجوزى وانظر جوامع السيرة لابن حزم ص ٥ ، والمحسن الأعظم ص ٢٦ للسيد وحيد الدين .

ــ جملة وتفصيلا ــ وهم يرون فى « الوحى » ظاهرة « تحتية » تخضع لتطور نفسى وروحى معين ، ويمكن الوصول اليها عبر تدريبات معينة ، انهم يرفضون امام محك العقل مبدأ « الفوقية » ، ومبدأ ان يكون هناك « وحى » يصدر عن قوة عليا . . .

وفى رايهم ان تكرر الظاهرة ــ مصحوبة بالاعجاز الخارق منذ آدم وابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ــ لا يكفى دليلا على ثبوتها ، بل ان هذا ــ فى رايهم ــ دليل « علميتها » ، وامكانية تحقيقها فى اطار ظروف وشروط محددة .

ان الشيوعيين واللادينيين بعامــة ينادون باســقاط الوحى الى المستوى الانسانى(١) ، انطلاقا من لا دينيتهم التى لا تؤمن بما فوق الانسان والعقل .

ومثل هؤلاء انما يحتاجون فى الأساس الى مناقشة وجود « الميتافيزيقا » أو « ما وراء العقل » ابتداء . . وبعد ذلك ، وعند الاقتناع بوجود ما فوق العقل ، وبوجود « غيب » . . وبأن العقل ككل الطاقات الانسانية يتمتع بمدى محدود يقصر مداه عنده . . عند الاقتناع بهذا الأساس الغيبى الذى يفرض نفسه على الحياة ــ شاء الانسان أم أبى ــ يصبح سهلا الاقتناع « بالوحى » .

وبما انه ليس من طبيعة بحثنا الدخول فى هذا الحوار الطويل ، فاننا نكتفى ــ فيما يتعلق بالوحى الذى تنزل على محمد عليه الصلاة والســـلام ــ باثبات الحقائق التالية :

اولا : لقـــد تلقى محمد عليه السلام الوحى اشد ما يكون

(١) راجع بعض الأعداد الاولى لمجلة مواقف البيروتية الشيوعية .

معاناة له ورعبا منه ، لدرجة انه قال لخديجة حين عاد اليها مرتجفا : « لقد خشيت على نفسى » ولكنها طمأنته قائلة : « انك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتكسب المعــدوم وان الله لا يخزيك ابدا » .. ولما علم « ورقة بن نوفل » بالأمر قال للرسول : « والذى نفسى بيده لقد جاءك الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وانك لنبى هذه الأمة . ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه »(١) .

فمحمد حين تلقى الوحى كان بعيد الذهن كل البعد عن طبيعة الوحى ، وعن مستقبله المرتقب معه ، ولم يكن ثمة تطور نفسى أو فكرى مهد لهذه اللحظة ، بحيث يمكن القول ان الوحى يرجع لتطور نفسى أو فكرى طبيعى .

ثانيــا : ان محمدا عليه الســلام ــ فيما جاء به عن ربه وهو القــرآن ــ قد عرض لقضايا وموضوعات ماضية وحاضرة ومستقبلة لا يمكن الزعم بأنها يمكن أن ترد عن طريق التطور الفكرى والنفسى لشخص أمى ، ليس ثمة شك على الاطلاق فى أميته ، الا للمكابر الذى يصر على انكار الحقيقة الواضحة وضوح الشمس فى كبد النهــار .

ثالثا : ومحمد هذا .. كانت له أحاديث عرفها الناس باسم « السنة الشريفة » .. هذه السنة الشريفة تقوم بينها وبين القرآن فروق كبرى فى سائر المناحى التى تتعلق بالتعبير ، وهى الفروق نفسها التى تجعل من القرآن معجزا .. ولم تجعل من كلام محمد عليه السلام الا مجرد كلام بليغ حافل بمعانى الكلم .. وكل شهادات خبراء الكلام فى البيئة العربية انما انصبت على القرآن وحده ..

---

(١) انظر ابن هشام ٤٨/١ ، وابن سعد فى الطبقات ١٢٩/١/١ والطبرى ٢٩٩/٢ .

فكيف انفصل الأسلوبان هكذا .. القرآنى الالهى والنبوى المحمدى فى عقل ولسان محمــد .. الا اذا سلمنا بأن مصــدرى الكلامين مختلفان .. هذا مصدره الله ، وهذا — فى مستواه التعبيرى — مصدره محمد عليه السلام(١) .

رابعــا : ان مكاشفة ما .. تأتى عن طريق تطور فكرى أو نفسى ، او تتلقى عن واحد من الجن مثلا .. لا يمكن أن تنتج عند صاحبها هذا اليقين الممتد عبر ثلاثة وعشرين عاما عند محمد عليه السلام ..

وهى ايضا لا يمكن أن تنتج هذا الاتزان .. وهذا الانسجام بين القول والسلوك .. وهذا الخلق الرفيع الذى ظل فى القمة من اخلاق البشر « كان خلقه القرآن » .

بالاضافة الى أن محمدا فى خلقه وشهرته وأمام المحيطين به وأمام نفسه .. لا يمكن أن يثبت هكذا هذه المدة الطويلة على دعوى يكون فيها أى نصيب من الزيف والكذب والاختلاق .

خامسا : لقد زعم بعض المرجفين من النصارى أن محمــدا الف القرآن جملة واحدة ثم كان يخرج منه بين الفينة والفينة جزءا يقول لأصحابه انه « الوحى » .

ورأيى الشخصى أن محمدا لو فعل هذا — وهذا بالطبع كذب محض — ولو علم — بالتالى — سلسلة الوقائع الغيبية التى حدثت

---

(١) ينظر فى موضوع الوحى من وجهة نظر اسلامية جيدة : الظاهرة القرآنية للمرحوم مالك بن نبى ترجمة د. عبد الصبور شاهين من ١٦٣ — ١٩٩ وانظر بتصرف الظاهرة القرآنية ٢٠٩ .

على امتداد حقبة نبوته — والف لها ما يناسبها .. الف لبدر سورة الأنفال ، والف لخلافه مع زوجاته سورة التحريم ، ولف، سورة الروم ، والف سورة المسد ، والف سورة التوبة .. الى آخره .

لو كان هذا .. لوجب ان يكون محمد عالما بالغيب يرسم له خطواته ، ولا اريد ان اقارع النصارى بدعاواهم فأقول : انه كان من الواجب أن يكون محمد — اذا كان كما تذكرون — فى الموضع الذى يضعون فيه المسيح عليه السلام — وحاشا لعيسى ان يقبل افتراءاتهم — وحاشا لمحمد كذلك ان يقبل هذا الذى يصلون به اليه دون وعى منهم وهو الذى كان يتعبد بقول الله تعالى :

((قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون))(١) .

ان محمدا لم يعلم اى تاريخ غيبى .. الا ما علمه الله اياه ، وهو بالتالى لا يملك تأليف قرآن يرسم قصة الدعوة كلها بكل مشاقها ووقائعها وتحدياتها عبر ثلاثة وعشرين عاما .

* * *

والقرآن — **بحد ذاته — هو الدليل الأكبر** على صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . والقرآن مع أنه يحمل دليل الهيته معه ، يحمل معه دليل نبوة الموحى اليه به ...

والقرآن نزل منجما عبر ثلاثة وعشرين عاما — كما ذكرنا —

(١) الاعراف : آية ١٨٨ .

وهو بهذا التنجيم الذى يعالج الحياة فى دورة من دوراتها ، تبلغ ثلاثة وعشرين عاما ، كافية لتحقيق القدوة والأسوة لموكب التاريخ البشرى كله فى سائر أطواره وتقلباته ..

وهذا التنجيم بتلك الفائدة التى حققتها للتاريخ البشرى يمثل اعجازا فى حد ذاته « فلو أن القرآن كان قد نزل جملة واحدة لتحول سريعا الى كلمة مقدسة خامدة ، والى فكرة ميتة ، والى مجرد وثيقة دينية ، لا مصدرا يبعث الحياة فى حضارة وليدة ، فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية لا سر لها الا فى هذا التنجيم »(١) .

ومع هذا التنجيم عبر هذا المدى الزمنى المتطاول تتجلى المعجزة ايضا فى تلك الوحدة التشريعية والتاريخية والفنية التى يمتاز بها القرآن الكريم ، بحيث يبدو وكأنه نسق واحد يرتفع فوق تموجات الزمن .. بل كأن عهده بالوجود امس ــ كما قال أحد المستشرقين !!.

هذا القرآن ــ كما ذكرنا ــ هو أبرز واقوى ادلة صدق الوحى .. وصدق نبوة محمد عليه السلام ..

ومن أدلة صدقه عليه السـلام ــ وادلة صدقه كثيرة ــ تاريخه كله .. تاريخه بين أعدائه وأصحابه .. وعلى الرغم من افتراءات أعدائه الكثيرة ، فان أحدا منهم لم يطعن فى صدقه .. بل كان الصدق علما عليه وعندما جاهر بدعوته وصعد على الصفا ينادى قومه قبيلة قبيلة وسألهم : ((**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟**)) قالوا : نعم ، ما جربنا عليك الا صدقا ، قال : ((**فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**))(٢) .

(١) مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ٢٢ .

(٢) اخرج القصة البخارى ومسلم والترمذى عن ابن عباس .

وحتى أعداؤه — فى مواقف كانت ضارة بهم — اجبروا على ان ينعتوه بالصدق والأمانة ..

أبو جهل يقول له : انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به .. وابو سفيان يشهد امام هرقل بأنه ما عرف بالكذب قط .

وبعد ان تلقى الرسول الوحى دعا أصحابه المقربين الى الاسلام — فى مرحلة الدعوة السرية الى الاسلام — وكان اكثر من استجابوا له انما استجابوا بسبب ثقتهم فى صدقه .. وخلقه !!.

وزوجات الانسان هن اقرب الناس اليه واكثرهن معرفة به .. وما وجد احد كان موقرا محبوبا من زوجاته مثل محمد عليه السلام ، ولو كان ثمة ثغرة فى دعوته لأمكن لزوجاته كشفها سواء على مستوى النظر او السلوك .

وخادمه الخاص أنس .. الذى كان آخر الصحابة موتا والذى مات سنة ٨٤ هـ اى انه عاش بعد الرسول اكثر من سبعين سنة .. انس هذا .. هل غير رايه فى الرسول طوال هذه الفترة ؟ ام أنه كان يبكى اذا ذكر اسم الرسول أمامه .. وله فيه شهادات لم توجد اطلاقا من خادم لمخدومه ؟.

وبالمقياس الاجتماعى البحت .. كيف تجلت عظمة الرسول ؟ ان عظمة الانسان وأصالته بالمقياس الاجتماعى — تتجلى فى مدى تأثيره الايجابى الأخلاقى على اكبر مساحة اجتماعية ممكنة — وبمقدار ما تعكس الذات نفسها على حركة سير المجتمع واتجاهاته الخلقية والنفسية والفكرية — يكون نصيبها من الايجابية او السلبية ،

ويتحدد بالتالى مقدار رصيدها من العظمـــة والأصالة بالنسبة للمقياس الاجتماعى .

ومن زاوية اخرى ، تحتم ابجديات العقل التسليم بأن تخريج جماعة كبيرة من التلاميذ فى مستوى نادر ورفيع من الخلق والوعى والنبوغ يصلح مقياسا للحكم على المدرسة التى تخرجت منها هذه الجماعة !!.

ان مستوى التلاميذ ـــ اذن ـــ يشكل زاوية من زوايا الحكم على المعلم .. وعلى مدير المدرسة .. هــذا ما تقوله النظرة الاجتماعية ، وما يقوله منطق العقل ايضا !!.

ونحن هنا نعتمد هذا المقياس الاجتماعى والعقلى كطريق من طرق النظر الى عظمة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه .

* * *

اننا اذا نظرنا الى المجموعة التى أحاطت بالنبى عليه الصلاة والسلام والى مستواها الانسانى ـــ والى طبيعة العلاقة التى تربطها به عليه السلام ـــ نلاحظ للوهلة الأولى عدة حقائق .. لم يثبتها التاريخ الا فى هذه الحالة وحدها .. وهى لم تتكامل على هذا النحو الا فى سيرته عليه السلام حتى انها لتبدو لى معجزة من المعجزات التى خصه الله بها .

● ان حكم محمد عليه السلام على أصحابه كان حكما صادقا لم يتخلخل قط ، واما حبهم له وثقتهم فيه فهو نادرة من نوادر التـــاريخ .

● وهذا الحب وهـذه الثقة وهـذا الولاء .. فى حياته وفى مماته ، لم يتغير قط ، ولم يتعرض لهزات بحكم السياسة او المنافع — بل كان هو امامهم ومثلهم الأعلى دائما .. يتلمسون عند الخلاف قوله .. ويحتكمون فى كل أمورهم لرايه حيا أو ميتا ..

وهؤلاء الأصحاب هم قمم أيضا .. لكنهم أمام عظمته عليه السلام يبدون وكأنهم لا شىء .. فكلهم عظيم فى جانب .. اما هو فجوانبه كلها عظيمة .. بحيث ان صدقه .. يتكامل مع امانته ، مع كرمه .. مع مروءته .. مع وفائه .. فكأن الأخلاق والعظمة اجتمعتا وجسدتا فيه .. ليكون عليه السلام قمة الأخلاق والعظمة فى موكب الحضارة والتاريخ ..

* * *

ونبوته — عليـه السـلام — تثبت من زاوية اخرى اذا ما استعرضنا تركيبة حياته عليه السلام ..

فقد الف الناس — على امتداد التاريخ وتقلب المجتمعات والمقاييس — ان يروا كثيرا من الناس يكافحون فى صدر حياتهم كى يصلوا الى مركز مرموق أو مستوى راقٍ من الحياة الاقتصادية والاجتماعية .. أو السياسية .. أو الفكرية ..

فاذا ما وصلوا الى ما ارادوا تبدلت حياتهم .. حتى وان حافظوا على بعض سجاياهم الخلقية ، فالمجتمع لا ينكر عليهم ذلك ، بل يعتبره حقا طبيعيا وثمنا عاديا لرحلة الكفاح ..

فالقائد السياسى او العـالم الكبير أو مدير الجامعة .. من الطبيعى — فى العرف الاجتماعى — ان يسكن بيتا أو يلبس

لباسا — او يركب سيارة او ياكل طعاما — كلها من نوع مختلف تماما عن حياته الأولى ..

والمجتمع لا ينكر هذا السلوك اذا كان مصدره مشروعا ، بل انه يعتبره ثمرة من ثمار الكفاح ، وحقا من حقوق الانتصار فى معركة الطموح ..!!.

لكن التاريخ لم يشهد عظيما من العظماء — فى غير مستوى النبوة الكريمة — تنسجم حياته وتتوازن فى مستوى واحد .. وكأنها نهر هادىء لا تعكر مسيرته أعاصير الثراء ولا عواصف الفقر ، ولا امتحانات الاضطهاد والقلق .. ولا امتحانات الظفر والانتصار ..

فليس هناك تغير فى المستوى الفردى أو الاجتماعى .. بل هناك رضا تام « بالمستوى الأقل » من الحياة الاقتصادية .. وحب عارم للحياة مسكينا والموت مسكينا ..

— والفراش نفسه المكون من حصير يؤثر فى جنبه .. هو نفسه الذى كان ينام عليه قبل الهجرة والفتح وبعدهما .

— والطعام نفسه .. الذى كان يأكله — كما وكيفا — هو نفسه الذى كان يأكله قبل الهجرة والفتح وبعدهما ..

— واللباس نفسه .. هو .. اللباس نفسه ..

— وتنظيمه « الاقتصادى » لحياته العائلية .. هو نفس التنظيم لم يتغير فى حالة من الحالات ..!!

***

علام اذن كان يقطع عليه الصلاة والسلام رحلة الحيـاة الحافلة بالصور المعروفة من الجهاد المتواصل ؟.

ــ انه لم يكن يقطعها من أجل غاية ذاتية .. اقتصادية او اجتماعية .. ولا لأية غاية من غايات هذه الدنيا .. وانما كان يقطعها لغـاية واحدة .. هى تبليغ الرسالة واداء الأمانة .. استجابة لنداء الوحى .. لكى يصل يوما ما الى مخاطبة جموع الحجيج (فى حجة الوداع) قائلا :

ــ الا هل بلغت ؟.

● فيقول الجميع :

ــ نعم .

فيقول : **اللهم فاشـهد ....!!.**

ولا يلبث محمد الذى أشهد الناس على اداء الأمانة ان يذهب الى ربه .. دون أن يأخذ من هذه الدنيا لنفسه أى حظ ..

فكأنه انما جاء للأمانة .. وللأمانة وحدها .

ذلك الصـادق الأمين .

عليه الصلاة والسـلام .

* * *

محمد ﷺ يبنى الفرد

النبى يبنى الفرد :

فى غار حراء .. اثناء اعتزاله الجاهلية القرشية .. وهدوئه النفسى ، بعيـــدا عن صخب مكة .. اتاه الوحى .. ولقد تلقى الرسول الوحى كما كان يتلقاه الأنبياء السابقون ...

وكان اول ما القى اليه الوحى : **« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »** .

... فكان هـــذا النداء **« اقرأ »** بداية الدعوة الاسلامية كلها .. تلك التى مرت ادوارها بثلاثة ادوار : مرحلة بناء الفرد .. ومرحلة بناء الدولة .. ومرحلة بناء الحضارة .. وهو بداية حضارة انسانية جديدة تصلح **« اقرأ باسم ربك »** ان تكون شعارا لها .

وايضا كان هذا النداء بداية مرحلة بناء الفرد .. بالذات .. بناء الفرد الأمثل القائد المخاطب بكلمة **« اقرأ »** وبنـــاء الأفراد الآخرين المرشحين لحمل الدعوة وبناء الدولة والحضارة عن طريق فكر هذا الفرد النبى وسلوكه .

وظل النبى يتلقى الوحى .. **« انا سنلقى عليك قولا ثقيلا »**

فيبلغه الى الناس بالطرق السرية مدة ثلاث سنوات .. ثم يأمره الوحى بالجهر بالدعوة مبتدئا بعشيرته ((**وانذر عشيرتك الاقربين**)) فيبلغه الى الناس جهرا مدة عشر سنوات .. يتحمل فيها من صنوف الأذى ما ينوء بحمله الجبال .. ويظهر له جليا ان اسباب الأرض لابد ان تلتحم بعون السماء ((**انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء**)) ... فيخاطب ربه بعد عودته من الطائف حزينا جريحا :

((**اللهم اليك اشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين .. أنت رب المستضعفين ، وانت ربى .. الى من تكلنى .. الى بعيد يتجهم لى .. ام الى عدو ملكته أمرى .. ان لم يكن بك غضب على فلا ابالى**)) وبهذا الدعاء ظهر خط جديد للدعوة .. خط سماوى يبدأ بالاسراء والمعراج ...

* * *

خلال السنوات السرية الثلاث اسلم عدد قليل لا يزيدون على الخمسين ، كان على راسهم اسرة الرسول نفسها .. خديجة ومولاه زيد بن حارثة وابن عمه ورفيقه فى البيت على بن أبى طالب .. واسلام هؤلاء بحد ذاته دليل على مدى النقاء والسمو الذى عاشه الرسول فى سنواته الأربعين ... فآخر ناس يستطيع الانسان ان يكذب عليهم هم هؤلاء الذين خالطوه وعرفوه عن كثب .. انهم أسرته .

« ان أعظم الناس واجلهم اذا انقلب الى بيته كان فيه رجلا من الرجال ، وواحدا كآحاد الناس .. ولقد صدق فولتير فى كلمته المشهورة : « ان الرجل لا يكون عظيما فى داخل بيته ولا بطلا فى اسرته » يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس

اليه لاطلاعه على دخيلته وعلى مباذله . وهذا الحكم لا ينطبق على الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ، فيقول (ياسورت سمث) : ان ما قيل عن العظماء فى مباذلهم لا يصح — على الأقل — فى محمد رسول الاسلام »(١) ...

وكلمة خديجة المعروفة : « انك لتصل الرحم وتكسب المعدوم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف » شهادة رائعة من زوجة أكبر من زوجها بخمس عشرة سنة ، وقد تزوجت قبله باثنين .. لزوج شاب لم يسبق ان تزوج غيرها .. وهى شهادة اتت بعد خمس عشرة سنة من الحياة الزوجية الشديدة الاختلاط ..!!.

واما خادمه زيد بن حارثة .. فحسبه أنه آثر الرسول مع الرق .. على أبيه مع الحرية .. وفضل — فى الجاهلية — أن يكون خادما ورفيقا عند رسول الله ، بدلا من أن يكون حرا وسيدا فى بيت أبيه ..!!.

... وتلاحق المسلمون السابقون « أبو بكر » .. اقرب اصدقائه اليه .. يسير على نفس الدرب ، ويكون أول رجل بالغ حر أسلم ... عثمان ... عبد الرحمن بن عوف ... سعد ابن أبى وقاص ... الزبير ... طلحة ... أبو عبيدة ... الأرقم بن أبى الأرقم ... الذى كانت داره ملجأ الدعوة فى مرحلتها السرية ... عثمان بن مظعون ... سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل ... فاطمة بنت الخطاب ... أسماء بنت أبى بكر ... عائشة ... خباب بن الأرت ... عامر بن فهيرة ... خالد ابن سعيد وامرأته أمينة ... عمار بن ياسر ... صهيب ... عمير ... ابن مسعود ...

---

(١) الرسالة المحمدية ص ١٠٦ .

هؤلاء الذين اسلموا فى صدر الدعوة .. هؤلاء الذين يمثلون السابقين الى الاسلام .. كانوا نماذج مختلفة ... قبيلة وطبقة ووطنا ... كان منهم الغنى والفقير ... منهم الهاشمى والأموى ... منهم الرجل والمراة ... منهم العربى والعجمى ...

ومن التجنى على الحقائق التاريخيــة الواضحة ما يحاوله بعض الســذج من تصنيف هــؤلاء تحت أى لافتــة اقتصــادية أو اجتماعية ... دون لافتة الاسلام ...!!.

ومن التجنى ايضا ... وهم مجموعة قليلة تواجه تحدى العالم كله ... ولا يأمن المرء منهم ان يعيش آمنا اذا عرف أحد باسلامه ... من التجنى الزعم بأن هناك اهدافا دفعتهم الى تغيير دينهم ومواجهة أعباء مستقبل غامض محفوف بالمخاطر والتضحيات .. غير هدف العقيدة التى آمنوا بأنها الحق ...

لقد كان ايمانهم بالحق .. للحق .. وقد ضحوا بأموالهم ومكانتهم الاجتماعية وتجارتهم واجسامهم ... من اجل ايمانهم بهــذا الحق ..

* * *

ومع بداية السنة الرابعــة للدعوة .. بدأ هؤلاء يدفعون ضريبة ايمانهم على اقسى واضخم ما تدفع ضرائب العقيدة ..

كانوا يعيشون بدار الأرقم فى ظلال النبى يتفيئون من أريج السماء عطرا نقيا يعطى الحياة رائحتها الزكية ...

اما الآن فقد اختلط العطر بالدم .. انهم لا يأمنون على انفسهم

فى الشارع ولا فى الكعبة ولا فى دار الأرقم .. ولم يعد ثمة ملجأ الا الله .. كان هو ملجأهم وهم يعذبون بصنوف من التعذيب .. لا نظير لها الا ما فعله ذو نواس فى أصحاب البروج ، وما فعلته العصور الثورية الالحادية الخبيثة فى روسيا ومصر !!.

واختلط الأحرار بالعبيد .. السادة بالموالى .. بوشيجة العقيدة .. فأعتق ابو بكر بلالا حين رآه يقول : « أحد .. احد » وهم يعذبونه فى الصحراء .. واعتق ابو بكر ايضا مع بلال باسم الاسلام ست رقاب : عامر بن فهيرة ، وأم عبيس ، وزنيرة ، والنهدية ، وبنتها ، وجارية بنى موئل (١) ..

وكانت قبيلة بنى مخزوم تخرج بعمار بن ياسر وبأبيه وامه اذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة .. فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : **« صبرا آل ياسر موعدكم الجنة »** ..

وكان ابو جهل اذا سمع بالرجل قد أسلم انبه واخزاه ، وقال له : تركت دين ابيك ، وهو خير منك !! لنسفهن حلمك ، ولنقبحن رايك ، ولنضعن شرفك ، ولنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك(٢) ..

كانت صحراء مكة قد أصبحت وكأنها مجاهل سيبيريا او ابو زعبل او السجن الحربى .. أو قصر النهاية .. فلا صوت الا أنين معذب .. او فرقعات سوط أو صراخ جارية مسكينة ..

* * *

---

(١) انظر ابن هشام : ٣٤٠/١ وما بعدها .

(٢) ابن هشام : ٣٤٢/١ بتصرف .

وكان النبى معهم .. يطمئنهم بوعد الله الذى لا يتخلف .. وينصح اصحابه القادرين أن يعينوا العاجزين .. ويفتح أمامهم مجالات الهجرة الى اماكن اكثر أمنا وحرية ..

ـ « لو خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده احد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » ..

وقد وجدوا هناك الأمن وحسن الجوار ، وحرية ممارسة شعائر دينهم ، وكان من شعر أحدهم « عبد الله بن الحارث » المعبر عن ذلك :

يا راكبـــا بلغن عنى مغلغلة (١)
من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد
ببطن مكة مقهـــــور ومفتـــون
انا وجـــدنا بلاد الله واســـعة
تنجى من الذل والمخزاة والهون

لقـــد كان خروجهم لأرض الحبشة يعنى اسقاط العـــلاقة بالتراب .. بالوطنية المحـــدودة .. اذا كان التراب أو الوطنيـــة المحدودة على حساب العقيدة ..

لقـــد كان هذا الخروج رحلة من رحلات العقيدة .. يشبه خروج اصحاب الكهف .. هـــؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم .. وزادهم ربهم هدى ..

---

(١) الرسالة ترسل من بلد الى بلد .

وكان فى الوقت نفسه امتحانا لعناصر الولاء فى ضمائرهم ومشاعرهم .. كى يصل الاسلام فى النهاية الى انه هو الأعلى .. وهو الولاء الاكبر .. وهو الوطن اذا عزت الأوطان .. ودونه — اذا كان لابد من الاختيار — كل الولاءات الوطنية الترابيـة والقومية الجنسية العنصرية ..

ونستطيع ان نقول : ان الهجرة الى الحبشة قـد حققت أغراضها .. وجنبت المسلمين صنوفا من التعـذيب والارهاب الفكرى والنفسى والجسدى .. كان من الممكن ان يشل تواهم ، وهم بصدد الدخول فى مرحلة مهمة تنتظرهم .. مرحلة بناء الدولة .. فالحضارة ..

وقـد فشلت قريش فى اعادة هؤلاء المهـاجرين بدينهـم الى معتقلها الحربى الارهابى .. وعاد اليها رسولاها عبد الله ابن ابى ربيعة وعمرو بن العاص اللذان ارسلتهما محملين بالرشاوى الى النجاشى .. عادا خائبين ..

كان النجاشى رجلا عاقلا عادلا (غير ثورى) فأصر على عدم الخضوع لتأثيرات الرشاوى التى اتحف بها الرسولان كل بطارقته .. واصر على ضرورة سماع وجهة نظر الطرف الآخر .. قبل الحكم عليه .. وجهة نظر المسلمين ، قبل ان يقرر بشأنهم أمرا « ولم يكن شىء ابغض الى الرسولين .. عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى »(١) .

.. وهذا الأسلوب الارهابى الخبيث .. هو اسلوب الباطل دائما .. انه لا يحب — لأنه لا يستطيع — الاستماع بعدل وحيدة لوجهة نظر الطرف الآخر .. فهو خبير بضعف حجته .. !! .

---

(١) السيرة لابن هشام : ٣٥٨/١ .

ودار حوار بين النجـاشى وبين جعفر بن أبى طالب .. مندوب المسلمين .. وقد وصف جعفر فيه للنجاشى ما كان عليه حالهم فى الجاهلية وما دعاهم اليه الرسول .. وما قاله جعفر للنجاشى ليس الا عين الصدق والحق ..

وما كان جعفر بمستطيع أن يتزيد كلمة واحدة .. او ان يبالغ فى تصوير الحياة الجاهلية تصويرا سيئا مستوحى من مشاعره ومباينا للواقع(١) .. وذلك لعدة اسباب :

١ ــ ان مثل جعفر والمسلمين المهاجرين معه ليسوا اهلا لهذا التزيد بحكم دينهم .

٢ ــ ان كلامهم يشبه امتحانا .. يقف له بالمرصاد رسولا قريش اللذان يريدان أن ينفذا من اية ثغرة وصولا الى اهدافهما ..

٣ ــ انهم بحضرة ملك وحاشية ، وكل كلمة لها حسابها فى مثل هذا الموقف .

٤ ــ ومن الصعب ان يتفق هذا العدد الكبير من المسلمين على غير الحقيقة .. بل من الصعب ان يجرؤ أحدهم على شىء من ذلك خشية أن يواجه بتصحيح من اخوانه انفسهم .. فتضيع هيبتهم ..

٥ ــ ومن الصدف الجيــدة أن ابن اسحاق نفسه روى عن المسلمين مداولة وجيزة قبــل اجتماعهم بالنجاشى ــ حول ما سيتكلمون به فى حضرته « فلما جاءهم رسوله (النجاشى)

---

(١) نرد بهذا على ما توحى به كلمات استاذنا الفاضل الدكتور على حبيبة فى كتابه : مصر الرسالة ص ١٤٠ .

اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟ .. قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما امرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا فى ذلك ما هو كائن »(١) ..

وفى نهاية اللقاء ، وبعد أن سمع النجاشى شيئا من سورة « مريم » قال لهم :

« ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة »(٢) ثم خاطب رسولى قريش قائلا : « انطلقا .. فوالله لا أسلمهم اليكما ، ولا يكادون » !!..

* * *

لقد سار المشركون فى مقاومتهم للاسلام .. وفق مخطط متقلب شرير .. ولقد حاولوا — وفق خبرتهم المادية والعقائدية — انتهاج كل السبل التى عرفوها .. والتى تتلاءم مع عقولهم المحدودة ..

ومهما يكن من أمر هذه الأساليب .. فاننا نستطيع القول قبل أن نوجزها — انها هى الوسائل التى يلجأ اليهـا الباطل، فى معاركه مع الحق ..

انها وسائل الترغيب الاقتصادى والاجتماعى .. والاعتماد على أعراف وتقاليد متحجرة لحجب العيون عن أن ترى الحق .. والتنكيل والتعذيب عند الافلاس وعند الشعور بتفوق الحق ..

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٣٥٩ .

(٢) هذا أيام كان النصارى ينشدون الحق ، وقبل أن تظهر عصابات التبشير الاستعمارى .

ونحن نوجز وسائل مقاومة المشركين للاسلام — فى مرحلة بناء الفرد فى مكة — فى الوسائل التالية :

● **الوسيلة الأولى :**

اسـقاط الحمـاية عن الرسـول(١) بمحاولات الايقـاع بين أبى طالب والنبى .. وقد خطوا فى ذلك ثلاث خطوات انتهت كلها الى الفشل .. بل الى نتائج عكسية لما توقعوه ..

— فقد ذهب وفد من أشراف قريش الى أبى طالب (عتبة وشيبة ابنـا ربيعـة ، وابو سفيان ، وابو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وابو جهل ، والوليد بن المغيرة ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، والعاص بن وائل ..) .

مشى هؤلاء الى ابى طالب فقالوا : يا أبا طالب ، ان ابن اخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا ، فاما ان تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه ..

فردهم أبو طالب ردا جميلا .. ولم يكلم الرسول فى شىء من ذلك ..

— فذهبوا الى أبى طالب فى المرة الثانية .. يحملون تهديدا صريحا ، قائلين : « يا أبا طالب ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا .. وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه او ننازله واياك فى ذلك حتى يهلك احد الفريقين » .

(١) انظر ابن هشام : ٢٨٤/١ وما بعدها .

وقد كلم أبو طالب الرسول فى الأمر .. بأسلوب اشتم منه الرسول رائحة ضعف من عمه .. فقال له قولته المشهورة : **« يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »** ثم استعبر الرسول فبكى ثم قام .. فقال له عمه : اذهب فقل ما احببت فوالله لا اسلمك لشىء ابدا ..

فشلت بذلك المحاولة الثانية للمشركين .

ــ وفى المرة الثالثة جاءوا لأبى طالب بعرض جــديد .. مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة .. انهد فتى فى قريش واجمله، على أن يأخذه ، ويعطيهم مكانه الرسول يقتلونه ..

فردهم ابو طالب فى هذه المرة ردا سيئا قائلا لهم : « اتعطوننى ابنكم اغذوه لكم ، واعطيكم ابنى تقتلونه .. هذا والله ما لا يكون ابدا » ...

ولم يكتف ابو طالب بحمايته الشخصية للرسول .. فقام بتجميع بنى هاشم وبنى المطلب ، ودعاهم لحماية الرسول والقيام دونه .. فقاموا معه ، واجابوه الى ما دعاهم اليه الا ما كان من امر ابى لهب .

● **الوسيلة الثانية :** التصفية الجسدية للمسلمين ...

واذ فشل المشركون فى ضرب القيادة .. لجئوا الى ضرب المسلمين ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ...

وقد تحدثنا عما اصاب بلالا وعمارا وغيرهما ..

وقد فشلت هذه الوسيلة ايضا ..

● **الوسيلة الثالثة** : الحرب النفسية ...

فقد استعرض المشركون كل النعوت التى يمكن أن يطلقوها على الرسول ، واستبعدوا منها رميه بالجنون .. والكهانة .. والشعر .. بل والسحر ، لعدم وجود شىء من ذلك فيــه .. ثم وصلوا الى ان اقرب القول فيه الى خداع الآخرين أن يقال : « انه ساحر » لأنه يفرق بين المرء وابيه .. وبين المرء وأخيه .. وبين المرء وزوجته .. وجعلوا يقولون ذلك لمن لقوه من النـــاس فى مواسم الحج .. « فانتشر ذكر الرسول فى بلاد العرب كلها » .

وخدموه من حيث لا يريدون .. وفشلت هذه الوسيلة ايضا .

● **الوسيلة الرابعة** : حرب الغوغاء والرعاع ...

ولجأ المشركون الى وسيلة جديدة .. اذ اغروا بالرسول السفهاء والرعاع .. فأخذوا يشيعون عنه الشعر والسحر والجنون والكهانة ، وسرت بينهم موجة من التمادى وسوء الأدب امتدت الى من عرفوا بأشرافهم فتبذلوا وسقطوا فى كلماتهم واساليبهم(١) .. حتى لقــد كانوا يغمزون الرســـول بالقول السىء وهو يطوف بالبيت .. وقد كرروا ذلك مرة وتمادوا حتى وقف الرسول مغيظا وقال لهم :

---

(١) كرد فعل لهذا الايذاء أسلم حمزة عم النبى فكسب به المسلمون رجــلا حقيقيــا .

« **أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح !! »** فأخذت القوم كلمته ، وبهتوا ، وصاروا يلاطفونه حتى يسكت عنهم ، ويقول بعضهم له : « انصرف يا ابا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا »(١) .

نعم : ما كان الرسول جهولا .. لكنهم هم الحمقى والغوغاء ..

وايضا .. فشلت هذه الوسيلة !!..

● **الوسيلة الخامسة :** الاغراء المادى ...

وقد رأى المشركون انتهاج وسيلة جديدة اقترحها عليهم أحد دهاتهم « عتبة بن ربيعة » وبتفويض من قريش ، ذهب عتبة يغرى الرسول بأمور دنيوية .. قال عتبة للرسول : « يا ابن اخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هـذا الأمر مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع امرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » .

حتى اذا فرغ عتبة اسمعه جزءا من سورة « فصلت » .. ثم قال له : « **قد سمعت يا ابا الوليد فانت وذاك** » ، فقام عتبة الى أصحابه ، فراوه بوجه غير الوجه الذى ذهب به ، فسألوه فقال لهم :

« سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر

---

(١) انظر ابن هشام : ٢٥٦/١ ، والطبرى : ٢٢٢/٢ .

ولا بالسحر ولا بالكهانة .. يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس ..

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ..

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم(١) .

وفشلت هذه الوسيلة أيضا ..!!.

● **الوسيلة السادسة** : التحدى المادى ...

وقد تحدوه بأسلوبين : أولهما بطلب معجزات مادية على نحو ما حدث مع الأنبياء السابقين .. فطلبوا منه أن يسير ربه الجبال المحيطة بمكة ، وان يبسط لهم فى البلاد ، ويفجر الأنهار كأنهار الشام والعراق ، ويبعث من مات من آبائهم ..

فقال لهم الرسول : « **ما بهذا بعثت اليكم ! انما جئتكم من الله بما بعثنى به** » .. فسألوه أن يجعل ربه معه ملكا يصدقه بما يقول ، ويجعل له جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة .. فرفض الرسول أن يسأل ربه شيئا من ذلك ..

فلما فشلوا فى الوصول مع الرسول الى هذا الحل المادى .. ذهبوا الى لون آخر من التحدى .. اذ أرسلوا عقبة بن ابى معيط

---

(١) ابن هشام : ٣١٤/١ .

والنضر بن الحارث الى احبار يهود بالمدينة يسألونهم عن اسئلة متحدية .. يكشفون بها حقيقة نبوة الرســـول .. ويلزمونه — فى رايهم — الحجة ..

وقد حدد لهم اليهود ثلاثة اسئلة يسألونها للرسول : اولها عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، وثانيها عن رجل طواف بلغ المشارق والمغارب ما كان نبؤه ، وثالثها عن الروح ..

وقد وجهت قريش الى الرسول الأسئلة الثلاثة ، ووعدهم الرسول الاجابة غدا — ولم يقل ان شاء الله — فتأخر الوحى عليه خمس عشرة ليلة ، حتى حزن الرســـول ، وأرجف المشركون . ثم نزل الوحى يجيب عن السؤال الأول بذكر قصة اهل الكهف ، وعن الثانى بذكر قصة ذى القرنين ، وعن الثالث بقوله : « **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا** » ..

ولم ينجح هـــذا التحدى ..

وفشلت هذه الوسيلة ايضا ..!!.

● **الوسيلة السابعة** : حرب الاعلام والتشويش الفكرى :

ولم يترك المشركون وسيلة التشويش الاعلامى المنظم ايضا .. وكان يحمل كبر هذا الاعلام النضر بن الحارث ، اذ كان النضر هذا « ذا معرفة ببعض اللغات الأجنبية وقرأ أوابد الأدب الفارسى والأدب اليونانى »(١) ، « وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار »(٢) .

---

(١) سديو تاريخ العرب العـــام : ٢٠٤ .

(٢) ابن هشام : ٣٢١/١ .

ومع معرفته وثقافته كان معاندا للحق .. يحاربه على علم ، ويتخذ الهه هواه .. وهو القائل لقريش :

« يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد .. قد كان محمـــد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيـــه الشيب ، وجاءكم بما جاء به ، قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر .. (الى آخر النص المذكور فى الفصل السابق) !! ..

هذا الخبير الذى يذكر هذا الكلام عن الرسول .. ويبرئه مما كان المشركون يتقولونه عليه .. ويحاول قيادة المشركين الى حل للأمر العظيم الذى نزل بهم ...

هذا المثقف الأديب لم يحاول البحث عن الحقيقة .. بل أوقف جهوده للبحث عن الطرق التى تسد نوافذ العقل وتحجب ــ بالتالى ــ شمس الحقيقة !!..

كان ــ مع ثقافته ــ من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداء (...) فكان اذا جلس الرسول مجلسا ، فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة ، خلفه فى مجلسه اذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم الى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار !!..

كان النضر المثقف .. الذى يعرف شيئا من أساطير المادية الجدلية ، وحكايات التاريخ الظنى الفارسى .. كان هذا المثقف الكاذب اذاعة موجهة للتشويش على الرسول وصرف الناس عنه ..

ومع اعترافه بالأمر العظيم المعجز الذى نزل على محمد .. لم يحاول أن يتلمس طريقا الى الحق ، بل ركز كل جهوده فى التظاهر بالثقافة ، وفى مقاومة شمس السماء بغربال من الأساطير الساذجة.. التى لا علاقة لها — فى الحقيقة — بقضايا الايمان والكفر ..

ويصلح النضر هذا — فى الحقيقة — نموذجا رائدا للأساليب الصحافية الرخيصة التى تعمد فى مقاومة الحق الى الخداع الفكرى واللفظى الذى تعج به بعض الصحف والاذاعات فى العصر الحديث ..

ومع ذلك ... فقد فشلت هذه الوسيلة ..!!.

● **الوسيلة الثامنة :** المقاطعـــة ...

وخلال هذه المسيرة فى مقاومة الدعوة الاسلامية الزاحفــة وصل المشركون الى قمة الضيق .. بعد أن رأوا أساليبهم تتهاوى واحدة اثر واحدة ، والمسلمون — برغمها — فى ازدياد مستمر ..

وهداهم فكرهم الشيطانى الى (المقاطعة) أى الى فرض حصار اقتصادى واجتماعى .. واعلان حرب باردة على المسلمين ، قد تصل — كما تصوروها — الى تصفيتهم وتصفية الدعوة الجديدة ..

لقد أرادوا بالمقاطعة القضاء على قيمة خيرة من قيم المجتمع الجاهلى ، وهى تماسك بنى هاشم وبنى المطلب مؤمنهم وكافرهم فى الدفاع عن الرسول ..

وقد أرادوا أيضا ابطال تأثير الاسلام على اخوانهم فى الكفر ، والهاء المسلمين بالمشاكل اليومية الحياتية .. وجعلهم فى موقف

الدفاع عن وجودهم ، بدل اتخاذهم موقف الهجوم الدائم على اللات والعزى وقيم المجتمع الجاهلى .

... وقد كتبوا صحيفة بالمقاطعة ... علقوها فى الكعبة : أن لا ينكحوا الى بنى هاشم وبنى المطلب ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعون منهم ... فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب الى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شعبه الا ابا لهب فانحاز لقريش .. ومكثوا على ذلك قريبا من ثلاث سنوات لا يصل الى أحد منهم شىء الا سرا(١) ...

ثم تحركت النخوة فى هشام بن عمرو بن الحارث العامرى .. واستطاع أن يجمع الى جانبه اربعــة من الذين كانت ضمائرهم تعذب لما يصيب بنى هاشم وبنى المطلب : زهير بن ابى أمية ، والمطعم بن عدى بن نوفل ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة ابن الأسود ...

ونجحوا معا — وبعون الله — فى تمزيق صحيفة المقاطعــة واعادة بنى هاشم والمطلب الى حالتهم الطبيعية ...

* * *

لكن سؤالا يمكن أن يوجه فى هذا المقــام :

— لقد كانت المقاطعة عزلا للمسلمين فى مكان بعيد — بعدا نسبيا — عن أهل مكة ، فلماذا لم يقم فى شعاب أبى طالب كيان اسلامى ذو ملامح متميزة يصلح نواة لدولة اسلامية ؟.

---

(١) الطبرى : ٢/٢٢٥ .

ـ ان الاجابة على هذا السؤال توضح لنا بجـلاء موقف الأقليات الاسلامية فى عالم اليوم .. فهذه الأقليات لا تستطيع فى ظل سيطرة الكيانات الأخرى الأعظم والأقدر ان تحافظ على كيان متميز تحقق فيه كل ملامحها ...

ان طريقهـا هو .. أن تناضل للوصول الى تغليب كيانهـا على الكيانات الأخرى .. اذا كان ذلك ممكنا .. والا فان عليها ان تبحث عن كيان مستقل اذا رأت نفسها تواجه بحرب ابادة فكرية وجسدية .. وهى عاجزة عن المقاومة تماما ..

ـ وفى شعاب ابى طالب حيث يعيش المسلمون رهن رحمة بعض الكافرين وعطفهم .. لم يكن ممكنا اقامة كيان اسـلامى مستقل ، وايضا فى ظل الحيـاة تحت الحماية القبلية العاطفية التى تتمثل فى موقف بنى هاشم وبنى المطلب .. لم يكن ممكنا اقامة دولة فكرة وعقيدة تحتمى فى ولاء قبلى قومى وتستمد وجودها منه ..

وبما ان الاسلام لا يقر الأساس القومى ـ كأيديولوجية ـ بديلة ـ ورابطة اولى أساسية للحياة .. فهو بالتالى لا يقر قيام دولة اسلامية فى شعب ابى طالب ..

لقد خرج بعض المحاصرين مهدودى القوى ، ومات فى العام التالى لفك الحصار « عام الحزن » أبو طالب عم الرسول وزوجته خديجة ...

فهل كان بامكان هذه القلة من المسلمين المحاصرين ... الوقوف فى وجه قبائل مكة العاتية الطاغية التى لا تبعـد عنهم الا خطوات ... والتى تستطيع اضرارهم دون أن يسـتطيعوا ارغامها على سلوك معين ...

ومع أن سلاح المقاطعة كان حادا .. الا انه — ايضا — فشل كوسيلة من الوسائل التى تهدف للقضاء على المسلمين !!..

● **الوسيلة الأخيرة : القتـــل ...**

ولم يبقَ أمام المشركين بعد أن فشلوا فشلا جماعيا فى المقاطعة الا أن يصلوا الى قرار اخير بشأن الدعوة .. وقد اجتمعوا فى دار الندوة .. وتبادلوا الراى حول انجع الوســـائل للقضـــاء على الرسول .. ووصلوا الى ضرورة قتله .. على أن يتفرق دمه فى القبائل حتى لا يستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مقاومة القبائل كلهـــا .. فترضى بالدية .. وينتهى المشركون من هـــذه الدعوة الجـــديدة ...

وفى هذه المرة ، ومنذ عودة الرسول من الطائف حزينا بعد طردهم له طردا سيئا .. فى هذه المرة ، ومرورا بالاسراء والمعراج .. كانت السماء هى التى تقود الدعوة .. بعد أن استنفد الرسول كل الأسباب والوسائل الأرضية ، وبعد أن شكا الى الله ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس ...

وامام عناية الله ... سقطت سقوطا ذريعا .. آخر واقوى واسوأ الوسائل التى اتبعها المشركون فى مقاومة الدعوة ...

وظهر الاسلام .. وكأنه تخطى مرحلة بناء الفرد عبر النجاح الكبير الذى حققه المسلمون — نبيا واتباعا — فى اجتياز كل هذه العقبات التى وضعها المشركون فى طريقهم ...

وبدا ايضا — وكأنه — بعد ان تخطى مرحلة بناء الفرد — يقف — بوضوح وقوة — على مشارف مرحلة بناء الدولة !!..

محمد ﷺ يبنى الدولة

البحث عن دولة :

كان احساس الرسول عليه الصلاة والسلام قويا — منذ خرج المسلمون مهدودى القوى من المقاطعة القرشية — بأن الدعوة لا يمكن أن تؤدى دورا ايجابيا فى تغيير بناء العالم، طالما بقيت — هكذا — تحت رحمة المشركين ، وطالما بقى اعضاء الدعوة متفرقين فى الأرض يبحثون عن ملجأ يحتمون فيه ...!.

وبعد وفاة درعى الدعوة القويين : ابى طالب وخديجة ، لم يعد قائد الدعوة نفسه بمنأى عن الاضطهاد اليومى ... الذى اصبح وكأنه عادة الحياة وقانونها ... حتى ان الرسول كان يخرج — فى بعض الأحيان — من بيته ، فلا يقابل الا من يسخر منه ، ومن يضع الأذى فى طريقه ، ومن يؤذيه فى طوافه بالكلام والفعل .. فيعود الى بيته آسفا .

والغريب ان حزبا قد برز فى هذه الآونة كأوضح ما يكون البروز .. كل رسالته أن يسخر من الرسول ويستهزىء به ، وقد عرف باسم « جماعة المستهزئين » ، ومن أبرزهم : « الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وابن عبد يغوث ، والحارث بن الطلالة » .

وقد عانى الرسول من هذه الجماعة كثيرا من الآلام النفسية !!.

* * *

واخذ الرسول يعرض نفسه على القبائل ، عل واحدة منها تأخذه الى ارضها ، تحميه ، وتحمى المسلمين المضطهدين ، وتلم اشلاءهم المتناثرة فى قطاع الأرض ..

لقد سعى ، ومعه خادمه زيد بن حارثة ، الى الطائف ، يطلب من « ثقيف » النصرة ، وعندما كلمه أشرافهم « عبد يا ليل ابن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو » .. لم يجد منهم الا اقبح رد ، وعندما رجاهم — فى شعور بالأسى — أن يكتموا لقاءه بهم عن قريش ، رفضوا رجاءه ، وزادوا فسلطوا عليه سفهاءهم « حثالة البروليتاريا » يسبونه ويصيحون به حتى الجئوه الى حديقة لعتبة وشيبة ابنى ربيعة .. يمسح فيها دماءه ودموعه .. ويشكو الى الله ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس ..!!.

ومع أن خروج الرسول الى الطائف كان تجربة قاسية ، الا ان الرسول عليه الصلاة والسلام لم يهتز اقتناعه بضرورة البحث عن « دار للهجرة » ..

— اتى الرسول كندة فى منازلهم بموسم الحج فعرض نفسه عليهم فأبوا عليه !.

— واتى كلبا فى منازلهم فى الموسم ، فلم يقبلوا دعوته ! .

— واتى بنى حنيفة فى منازلهم فى الموسم ، فلم يكن احد من العرب اقبح عليه ردا منهم ...

— واتى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فعرضوا عليه أن يكون لهم الملك بعده ،

فرفض مساومتهم الدنيوية الرخيصة وقال لهم : ان الأمر الى الله يضعه حيث يشاء .. فرفضوا ما عرضه عليهم !! .

فلما كان موسم العام الحادى عشر للدعوة ، خرج الرسول كعادته يدعو القبائل الوافدة الى الاسلام فلم يلبث أن لقى ستة نفر من الخزرج اراد الله بهم خيرا .. كان هؤلاء الخزرجيون يحاورون اليهود بيثرب ، ويسمعون منهم ــ كلما جرى بينهم خلاف فى الراى ــ ان نبيا سيظهر قد اظل زمانه ، وان اليهود سيتبعونه ، ويقتلون به الأوس والخزرج قتل عاد وارم ....!!.

وكانت هذه الكلمات تدوى فى آذان الخزرجيين .. فلما كلمهم الرسول ، تحركت أصداؤها فى نفوسهم ، فقال بعضهم لبعض .. يا قوم ، تعلموا والله انه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه .. فأجابوه فيما دعاهم اليه .. ودخلوا فى الاسلام ...

هؤلاء الستة نفر : « أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعقبـــة بن عامر ، وجابر ابن عبد الله » .. يمثلون طليعة الدعوة الاسلامية فى مرحلة « الدولة » .

انهم بداية ورمز المد الجديد الخالد للدعوة فى مرحلتها الجديدة وقد تحولوا عقب عودتهم الى يثرب دعاة للاسلام ، حتى ليقال : انه لم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) ...

---

(١) انظر فى هذا السيرة لابن هشام : ٧٣/٢ .

اسلوب الدعوة :

وفى العام التالى اقبل اثنا عشر رجلا الى مكة .. فبايعوا الرسول بيعـــة العقبة الأولى التى تسمى « بيعة النســـاء » لأنها لم يبايع فيها على الحرب .. بايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه ، ولا يعصوه فى معروف .. وعاد هؤلاء يحملون فى أعماقهم خلاصة المبادىء الكريمة العالية .. ويحملون معهم — أيضا — أول وأعظم سفير مسلم .. هو « مصعب بن عمير » .. كى يعلمهم الاسلام ، ويؤمهم فى الصلاة .. ويتم — فى يثرب — ما بداه اخوانه الستة الخزرجيون حين دعوا أهل المدينة الى دين الله ، فلم تمض السنة حتى كان مصعب عائدا الى الرسول فى مكة .. ببشرى غلبة الاسلام فى المدينة .. باسلام اغلب اهلها من الأوس والخزرج ...

- بالحكمة والموعظة الحسنة .

- بالفهم الواعى لطبيعة الاسلام كدين فطرة وعقل .

- بمخاطبة النفس البشرية من الداخل بعد ازاحة اتربة الجاهلية .

- بتحرير العقل من ضباب الجدليات والعصبيات والأفكار الميتة المختزنة .

- بالحركة الدائمة الواعيـــة .. من منزل الى منزل ؛ ومن ندوة الى ندوة ، ومن حوار الى حوار .

● وبالقـــرآن .. القرآن الذى يجاوز الحنـــاجر ويخرج من اعماق القلب النظيف الصافى ..

● وبالقدوة الحسنة فى القول والفعل ...

بكل ذلك — وبغيره — نجح مصعب فى تحويل « يثرب » الى أول « مدينة فى الاسلام » ولم يكن يمر يوم دون أن يسلم الرجل او الرجلان .. وقد اســـلم على يديه فى يوم واحـــد « سعد بن معاذ » و « اسيد بن حضير » من كبار زعماء يثرب .. فأسلم باسلامهما خلق كثير ..!!.

العقد الاجتماعى الأول فى التاريخ :

ومع بداية الموسم القادم عاد مصعب الى مكة ، وتبعـه فى الموسم خمسة وسبعون مسلما بايعوا الرسول بيعة الحرب المعروفة ببيعة العقبة الثانية ..

— بايعوه على ان يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وابناءهم .

— وبايعوه على حرب الأحمر والأسود — من اعداء الله .

— وبايعوه على ان يرتبط مصيره بمصيرهم ، والا يتركهم ويعود الى قومه ان نصره الله .. بل « الدم الدم والهدم الهدم . انا منكم وانتم منى ، احارب من حاربتم واسالم من سالمتم » ..

لقد تم الاتفاق على هذا الأساس الموجز الواضح بين القيادة والقاعدة .. بين النبى والمؤمنين .. اتفـــاق على اقامة الدولة

الاسلامية فى المدينة .. دولة تتوافر فيها العناصر الكبرى الثلاثة للدولة ...

١ ــ العقيــدة (الأساس الأيديلوجى) ويدخل ضمنهــا الدستور كأساس قانونى .

٢ ــ الأرض (الأساس المادى) .. ممثلا فى يثرب بحدودها الآمنة الواضحة المستقلة .

٣ ــ البشر ــ وهم الأنصــار (من أوس وخــزرج) والمهاجرون ، والقيادة العليا الحكيمة التى تتمثل فى شخص النبى عليه الصلاة والســلام ..

ومن الالتحام بين الانســان والعقيدة والأرض .. نشأت الدولة الاسلامية التى تطورت وأبدعت فأصبحت حضارة ..

وتعتبر بيعة العقبة الثانية أبرز وأسمى « عقد اجتماعى » فى تاريخ البشرية .. عقد قام فى ظل هذه المنظومة الثلاثية فانبثقت عنه دولة الاسلام الفتية القوية الدعائم .

* * *

كانت العقيدة صالحة للامتداد .. منفتحة .. تعطى الانسان معنى جديدا ورائعا للحياة .. وكانت تعطيه فى داخلها الدستور .. الدستور الممتد الذى يربط علاقته بالله .. وبكل من حوله من أفراد ومجتمعات .. ويصوغ حياته ــ فى اطارها الكلى ــ على نحو معين يلتقى بفطرته .. ولا يتعارض معها .. وفى ظل هذه العقيدة

شعر المسلم بأنه انسان قائد للحياة .. يتوجب عليه ارشاد القوافل الضالة الى ما هدى اليه ..

كانت العقيدة رسالة .. وحضارة ، وكان احساس المسلم يتجسد فى فوقية منفتحة .. ليست عنصرية وليست ارضية .. وانما هى فوقية مبادىء ترتبط فى ركن كبير من أركانها بالدعوة الى هذه المبادىء .. ولم يكن القرآن فى الحقيقة الا مترجما عن شعور واقعى تمنحه القيم الاسلامية حين قال للمسلمين : **« كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »** .. فالمسلمون .. كانوا يحسون بأنهم يملكون أروع قيم .. قيم الحق .. وبأنهم الذين اختارهم الله لأداء رسالته ولتبليغ هذه القيم الى الناس .. وربعى بن عامر الذى دخل على رستم قال له : « لقد ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده » .. وهو تعبير غنى عن التوضيح .. وهو أيضا مجسد للشعور الفوقى الانسانى الانفتاحى الذى اعطته العقيدة الاسلامية .. العقيدة المبدعة .. صانعة الحضارة الانسانية العالية ...

* * *

العقيدة هنا فى دولة الهجرة التى اتفق على انشائها فى بيعة العقبة الثانية كانت الوقود والهواء والعنصر الخفى ، الذى يربط بين « الأكسوجين » و « الأيدروجين » ويجعل منهما ماء ..!!.

والعقيدة هنا .. لم تكن خاضعة لقانون من قوانين التطور الأرضى التاريخى .. فهى ليست رد فعل لأى شىء .. وليست تناقضا مباشرا مع اى شىء ، وليست تحمل فى باطنها تناقضات تستمد منها حياتها وعطاءها للآخرين ...

كانت العقيدة وضعا للقيم الانسانية فى موضع جدير بهـا وكانت بعثا لهذه القيم .. وسواء كانت بعض هذه القيم موجودة فى التراب الجاهلى او فى العقائد القديمة الدينية أو البشرية .. فهذا لا يهم .. ان الاسلام ليس حركة ضد اى حركة اخرى .. وهو ايضا لم يكن اصلاحا لخلل معين .. او حلا لأية أزمة اقتصادية او اجتماعية طارئة .. انها عقيدة فوق ذلك واشمل من ذلك واخلد من ذلك ..

انها عقيدة للانسان .. كل انسان يريد أن يحقق وجوده الانسانى ..

وهى عقيدة حضارة .. لكل حضارة تريد أن تحقق لنفسها العمق الالهى الانسانى الكفيل بحمايتها .. كحضارة بناء وانسانية ..

* * *

وحين وجدت هذه العقيدة فى انسان الأنصار .. الانسان القابل للصناعة الحضارية ، الانسان المهيأ للبذل فى سبيل ارساء دعائم هذه الحضارة .. استطاعت أن تبرز نفسـها فى مرحلة الدولة ــ كما أبرزت نفسها قبل فى مرحلة الفرد ..

لقد اعطاها هذا الانسان .. الأرض .. وفى داخلها الاقتصاد (المال) واعطى الدم .. واعطى ــ ايضا ــ عمره (الزمن) .. واستطاعت العقيدة ان تمزج بين هذا الانسان وبين معطيات الأرض .. وان تستغل الزمن أدق استغلال ممكن ..

وبمجرد قيام دولة العقيدة الجديدة المحددة المستقلة فى يثرب ، التأم شمل الأفراد المسلمين .. المبعثرين .. فمن كل افق وجد

فيه انسان مسلم اندفع الأفراد الذين يمثلون طليعة الحضـــارة الجديدة .. نحو مدينتهم التى تكفل لهم اقامة الدولة الاسلامية .. وبذلوا فى سبيل أن يصلوا الى دولتهم كل شىء .. من الحبشة .. من مكة .. من القبائل العربية الموجودة فى الجزيرة .. من كل هؤلاء وجدت الدولة الجديدة .. يمثلها انسان جديد .. ذو هوية واحدة .. هى وطنه .. وهى عقيـــدته .. وهى رسالته .. وهى حضارته .. انها هوية الاسلام .. لا هوية غيرها .

لكن حلقة واحدة كانت قد بقيت حتى تلتحم كل هذه العناصر الالتحام الايجابى الخلاق ، وهذه الحلقة تتمثل فى امتزاج القائد — حامل العقيـــدة وراعى الدستور .. ومن خلفـــه الجنود — امتزاجهم بالأرض ..

وكانت الهجرة .. هجرة الرســـول والذين آمنوا معـــه الى المدينة هى الحلقة الضرورية التحقيق .. لابراز أول دولة اسلامية فى الأرض .

— لكن .. هل يترك المشركون قائد المسلمين واتباعه يذهبون الى أرضهم الجديدة .. لبناء دولة الاسلام بسلام ؟.

— هل يدعون هذه الانطلاقة الكبرى تنتهى الى بداية طريقهم الآمن المضمون ؟.

النقلة التاريخية الهائلة والتحام السماء بالأرض :

كانت خطة الهجرة محكمة .. كأقوى ما يكون الاحكام وأبرعه .

وكان هذا ضرورة من ضرورات نجاح هذا الفتح الجديد ..

فتجاهل القوانين التى وضعها الله لمسيرة الحياة ارتجالية ساذجة لا تليق بالدعوات الكبرى .. وابرز اعمال هذه الدعوات الانسجام مع قوانين الله .. لا تجاهلها .

— وقامت الخطة المحكمة على اكتاف سبعة أشخاص .. اجاد كل منهم دوره المرسوم له كل الاجادة .. فلم يعرف ان خطأ واحد قد ارتكب فى هذه النقلة الكبرى .

١ — أما الرسول عليه الصلاة والسلام — وهو بيت القصيد — فقد كان ينتظر أمر السماء ، وهو مهيأ نفسيا لاجتياز العقبة ، والخروج من حصار مكة الذى يكاد يكون ملموسا .. وما ان قيل له : ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك .. وانهم يمكرون ، ويمكر الله .. حتى بدأ — فى ساعات — يتخذ عدة الرحيل ..

ان الرسول لا يتحرك الا بأمر .. ولا ينتقل من مرحلة الى مرحلة الا بتوجيه اعلى .. لأن الأمر كبير .. أمر مرحلة جديدة تلزمها تشريعات جديدة .. وطاقات جديدة ..

فلما جاء الأمر .. وهرول به الرسول الى صاحبه ابى بكر — فرح هذا الأخير ، وطلب الصحبة ..

● وبعد تلقى الأمر الالهى وزع الرسول أدوار الخروج من القرية الظالمة ..

٢ — اما ابو بكر ، فكان الرجل الثانى — وكانت مهمته

تتلخص فى الصحبة ، وفى اعداد الزاد والراحلة ــ التى أصر الرسول على دفع نصيبه فيها .. كما أن من مهام أبى بكر تنفيذ بعض الأدوار عبر آخرين متصلين به ..!!.

٣ ــ وأما على بن ابى طالب ، فكان الرجل الثالث .. وكانت مهمته مزدوجة .. ان يعمى على المشركين .. فيبيت فى فراش الرسول ليلة الهجرة ..

وايضا .. ان يؤدى الأمانات الى اهلها ، لأن نبى المبادىء العالية لا يترك اية ثغرة جزئية مهما كانت الظروف صعبة .. ومهما كانت القضية كبيرة ..

٤ ــ وأما عبد الله بن أبى بكر .. فكانت مهمته تنحصر فى التعرف على خطط قريش وايصالها أولا بأول الى الرسول وصاحبه فى الغار ..

٥ ــ وأما عامر بن فهيرة ــ مولى أبى بكر ــ فكان مكلفا بأمرين : أن يحضر الأغنام الى الغار ، كى يشرب منها الرسول وصاحبه ما يشاءان ، وأن يعفى بهذه الأغنام على اقدام عبد الله ابن ابى بكر ــ الذى كان يبلغ أخبار قريش .

٦ ــ وكان دور أسماء ــ ذات النطاقين ــ حمل الطعام والزاد .

٧ ــ أما عبد الله بن أريقط .. فكان الدليل فى الرحلة ، ولم تظهر مهمته الا بعد الأيام الثلاثة وبداية نجاح الهجرة .. لكنه كان مرحلة مهمة من مراحلها .

... ومع كل ذلك اتخذت كل أساليب الحيطة والحذر ...

— فنوم على فى الفراش ، وتعفية الأغنام على الأقدام ، والخروج من بيت ابى بكر ، ومن نافذة خلفية بالدار بالذات ، واتخاذ دليل يسير بهما فى طريق غير مطروق ، وتتبع اخبار مؤامرات قريش لاحباطها ، والبقاء فى الغار مدة حتى تهدأ الرحلة وتيأس قريش ..

كل هـذه الوان حيطة اتخذها رسـول مكلف من الله .. ويؤدى رسالة الله ، ويحيا فى كنف الله .. ولم يجد — عليه السلام — أى تناقض بين اتخاذ هذه الأسباب وبين حماية الله ورعايته ..!!.

ومع كل هذه الأسباب المادية — من الحيطة والحذر — وقفت عناية الله الى جانب المهاجرين الكبيرين فى اكثر من موقف مروع ..

وكانت وقفتها — قبل الأسباب المادية — عمود النجاح .. لكنها كانت رعاية للأسباب .. وانجاحا لمهمة استحقت أن تفوز بالنجاح . وقد تجلت العناية الالهية فى مواقف حاسمة ...

● تجلت حين خرج الرسول من داره ، وفتيـان قريش يلتفون حول الباب ، فضرب الله عليهم النوم .. وخرج الرسول بعد أن وضع على رؤوسهم التراب وهو يقرأ : ((**يس . والقرآن الحكيم**)) الى قول الله تعالى : ((**فأغشيناهم فهم لا يبصرون ..**)) .

● وتجلت حين كانا فى الغار وجاء المشركون اليه ، فلو نظر احدهم تحت قدميه لأبصرهما فأغشاهم الله ، فلم يبصروا ، ويسر من وسائل الأمان .. من عنكبوت وحمام وأغصان اشجار متدلية على باب الغار .. ما تجلت به رعايته ..!!.

● وتجلت حين حمى الله المهاجرين الكبيرين من « سراقة ابن مالك » الذى لحق بهما على أمل الفوز بجائزة قريش .. فاعجزه الله عن الوصول اليهما .. وهو على بعد خطوات منهما ..

● وتجلت حين تحول سراقة .. سراقة الذى رأى بعينه حماية الله لهمـا .. تحـول الى مضلل لقريش .. يصرفهمـا عن طريقهما .. ويحرس مسيرتهما ..!!.

التدعيم الداخلى للدولة الجديدة :

وبنجاح هذه الرحلة الخالدة .. التحمت عناصر ابداع الحضارة التى ارست دعائمها هداية الله .. وبدأ الرسول .. عندما بركت ناقته القصواء فى مربد « لسهل وسهيل ابنى عمرو » .. يبنى أول أساس من أسس الدولة الاسلامية الناشئة .. يبنى المسجد .

وبسواعده عليه السلام .. سواعد النبى القدوة .. وليس أوامر « صاحب النظرية الدنيوية » التى لا يطبقها على نفسه ..

بسواعد النبى القدوة ، وسواعد الصحابة جميعا من مهاجرين وأنصار .. تم بناء المسجد .. فكان ثانى مسجد بنى فى الاسلام .. اذ سبقه بأيام مسجد قباء الذى وضع الرسول حجره الأساسى وهو فى طريقه الى المدينة ..

والمسجد أول خطوة فى بناء المجتمع الاسلامى .. منه تبرز خطط الحركة الاسلامية فى الأرض .. وفى ظله يطلب العلم .. وبين جنباته تقضى حوائج المسلمين ، وتحل مشاكلهم ، ويتعلمون أمور دينهم .. وظلال المسجد ومعانيه ، وما يفرضه من مناخ ،

كفيلة بارشاد العلم ، وموضوعية الحكم ، ومراقبة الله فى كل جزئيات الحياة ..

من هنا كان المسجد رمز المجتمع الاسلامى .. ومن هنا بناه الرسول فى قباء — وهى من احواز المدينة — وبناه — كأول أساس — عندما وصل الى المدينة ..!!.

« وفى ركن من صحنه الواسع اقام محمد حجراته التى أقام فيها بقية حياته ، وفى الطرف الشمالى للجامع انشأ العريش الذى كان يعين ناحية القبلة ، وفى الطرف المقابل لناحية القبلة اقيمت الصفة ، وهى سقف أو ظلة مقامة بعرض الجدار ، تحملها جذوع نخل ليجلس تحتها « أهل الصفة » ، وهم كما تذكر كتب السيرة والتاريخ ، نفر من الفقراء احبوا أن يقضوا حياتهم قرب المسجد للقيام على شئونه والتعبد فيه ، ولكن عندما نقرأ أسماء أهل الصفة نجد الكثيرين منهم لا ينطبق عليهم وصف الفقراء ، ويبعد أن يكونوا قد عاشوا من صدقات الناس ، فقد كان منهم أبو ذر الغفارى ، الذى تأبى طبيعته قبول الصدقات ، ومنهم عمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وصهيب الرومى ، وهم من الصحابة القدماء .. وكانت لهم بيوتهم المعروفة . ومن هنا فلابد أن يكون لأهل الصفة عمل محدد ووظيفة بالنسبة للمسجد وبالنسبة للرسول »(١) ..

لقد كانت منطقة « مربد سهل وسهيل ابنى عمرو » التى بركت فيها ناقة الرسول مجمع وزارات الدولة التى ترسم شئونها الخارجية والداخلية ..

ونحن لا نستبعد أن يكون أهل الصفة هم المنفذين — عن طريق

---

(١) عالم الاسلام للدكتور حسين مؤنس ١٣٤ .

تعليمات القيادة ــ لكل سياسة الأمن والتنظيم الادارى والمالى والشئون الاجتماعية اليومية للدولة الاسلامية .. بالاضافة الى الدور الذى يقومون به فى تسجيل وقائع حياة الرسول .. باعتباره مصدر التشريع للدولة الاسلامية .. وبالاضافة الى دورهم فى الأعمال اليومية التى يتطلبها المسجد كمركز سياسى واجتماعى واقتصادى .. ومكان عبادة ايضا ..!!.

* * *

وآخى بين المهاجرين والأنصار ..

وهو اخاء آخر معانيه الاقتصاد والمال .. ان العون المعاشى احد معانيه . لكنه ــ كما ذكرنا ــ آخر هذه المعانى ..

ــ كان الاخاء وادا لمعنى العصبية القبلية والقومية ..

ــ وكان الاخاء ارساء لمعنى جديد على حياة الجاهلية .. معنى فوقية العقيدة على الدم والتراب .

ــ وكان الاخاء اعلانا لميلاد الدولة الجديدة بأواصرها الجديدة وهويتها الجديدة ، ان القضية ليست فى ازالة شعور المسلمين بالغربة .. وان كان هذا من معانيها ، فقد كان بامكان المهاجرين ــ داخل الاطار العام ــ تكوين جالية طارئة تحتل طبقة ثالثة فى المجتمع .. وبامكان الخزرج ــ داخل الاطار العام ــ تكوين جالية أصلية .. يتبعها الأوس كجالية ثانية .. وهكذا تتوافر الفرصة لازالة الشعور بالغربة .. وان كانت ستتوافر الفرصة ايضا لابراز الأوضاع الجاهلية من جديد .. لابسة فى هذه المرة ثوبا جديدا ..!! .

لكن الاسلام يرفض هذه الجاهلية مهما لبست من اثواب ، وبالتالى فان الاخاء كان اقتلاعا للجاهلية من جذورها ..

وبعد ذلك — وفى ظل ذلك — يمكن أن تتحقق بقية الأخلاقيات .. التى تحدثت عنها الآية الكريمة :

« والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »(١) .

لننظر فى اخاء الرسول بينه وبين على ، أو لننظر فى اخائه بين حمزة وزيد بن حارثة ، او فى اخاء جعفر ومعاذ بن جبل .. اية معان مادية يمكن أن تقوم بين النبى المهـاجر وعلى المهاجر ايضا ؟ أو بين حمزة وزيد المهاجرين ايضا ..؟!!.

وأيضا : هل كان اختيار المتآخين يتم على أساس تكامل اقتصادى معين ، او قدرة من أحد الطرفين — ولاسيما الأنصار — على اعالة الطرف الآخر الأفقر والأضعف ...

ان تشريح النوعيات المتآخية — على هذا الأساس — سوف يدلنا على أن المعنى « الاقتصادى » لم يكن هو بيت القصيد ، وانما كان الاخاء يتم بهدف تحقيق أمثل صورة للبناء الاجتماعى المتكامل فكريا ونفسيا واجتماعيا .. قبل أن يكون متكاملا — على أساس الحاجة الفردية — من الناحية الاقتصادية ..!!.

ان الهدف هو هذه المعانى الجديدة اللائقة بطبيعة المبادىء

---

(١) سورة الحشر : الاية رقم ٩ .

الاسلامية (وليس القومية القبلية) التى تقوم عليها الدولة الجديدة .. وهذا اكبر معانى .. بل اكبر غايات الاخاء ..!!.

وتأتى « الصحيفة » التى وضعها الرسول كدستور للمدينة كلها .. كأساس ثالث لارساء دعائم الدولة الجديدة .. أو كركن ثالث من اركان العقد الاجتماعى الأول فى التاريخ الحضارى ..

وفى هذه الصحيفة .. تحددت علاقة المسلمين بعضهم ببعض من جانب ، وعلاقتهم بالطوائف الأخرى الموجودة بالمدينة من جانب آخر .. واستقرار وضع المدينة على أساس التعايش السلمى بين كل الطوائف ، واشتراك الجميع فى الدفاع عن المدينة وقت الخطر ، واعتبار الجميع اصحاب حقّ فى التمتع بالمدينة كمدينة أمن ورزقٍ .. وخضوعهم جميعا للقانون ــ الخاص بهم احيانا ــ والاسلامى فى القضايا الكبرى المتعلقة بالخطوط الكبرى للسياستين الداخلية والخارجية ..

فقد حددت مواد هذا الدستور أن الذين آمنوا بالدين الجديد من المهاجرين والأنصار (من قريش ويثرب) يكونون أمة واحدة من دون الناس .. ومع هؤلاء المؤمنين يأتى من تبعهم ولحقَ بهم وجاهد معهم .. فاذا علمنا انه قد كان من بين الذين جاهدوا مع المؤمنين أقوام من الأعراب والمنافقين والمؤلفة قلوبهم الذين يحاربون للأجر لا للعقيدة .. علمنا أن هذه الأمة كانت القيادة والنواة .. وأنها قد استقطبت وقادت كل الذين ارتبطوا سياسيا بالمجتمع والنظام الجديد .. وفى هذا الأمر ما فيه من وضوح الطابع السياسى والمدنى لهذا البناء السياسى الجديد »(١) ..

---

(١) محمد نظرة عصرية جديدة مقال محمد عمارة ص ١٠٠ طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت .

« ولقد حدد الدستور القبائل والأحياء التى تتكون منها هذه الأمة الواحدة من دون الناس ، واقر كلا منها على ما هو صالح من العادات والقيم والتقاليد »(١) .

« فاذا انتقلنا الى النطاق المادى الصرف وجدنا أن كل واحد من أعضاء الجماعة كان مستفيدا فائدة مباشرة من دخوله فيها ، فقد تحسنت الأحوال الاقتصادية فى المدينة ، وعمرت نواحيها وازدهرت تجارتها ، واصبحت الأرض التى كانت مهملة من قبل أرضا مزروعة أو مبنية لها قيمتها ، وحتى الأراضى التى لم ينشأ عليها شىء ولم تزرع زادت قيمتها المالية ... (...) .

« ولابد أن نذكر دائما أن ضمان ذلك كله كان محمدا — صلى الله عليه وسلم — بعدله المطلق ، وتفانيه التام وايمانه العميق بالاسلام وأمته ، وحرصه على مشاورة أصحابه وقدرته على انجاز القرار الحاسم السليم فى كل وقت »(٢) .

انها حياة فى ظلال الرسول .. بكل الآفاق العليا النادرة التى تمثلت فيه عليه السلام .. وانها الحضارة الاسلامية فى طورها الثانى الشاق الحافل بالآلام والآمال .. طور الدولة !!.

السياسة الخارجية لدولة الاسلام فى المدينة :

وسط بحر من العداوات الكثيفة .. والظلمات الأكثر كثافة .. ظهرت المدينة المنورة خلال العقد الثالث من القرن السابع الميلادى كشعلة قوية تحيط بها رياح الكراهية من كل مكان .. داخل الجزيرة وخارجها !!.

(١) المرجع السابق .

(٢) عالم الاسلام ص ١٦٩ .

واذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام ، كفيلا بحكمته أن يسوس بعض المنافقين الحاقدين الموجودين فى قلب المدينة ذاتها ، فكيف تستطيع المدينة ، التى تمثل نشازا فى لحن الجاهلية أن تقاوم الأعاصير والرياح التى تهب عليها من سائر ارجاء الجزيرة ، بصفة خاصة ؟!.

وغنى عن البيان أن اقوى هذه الرياح واغناها هى قريش ، التى لم تكن تسكت بالتأكيد على بروز دولة جديدة يعتبر قيامها هزيمة حقيقية لسياستها وسلطانها ..

ومن هنا ، فلم يأل الرسول جهدا منذ دخل المدينة ، وأرسى دعائم دولته من الداخل ، فى العمل على تأمين الدولة من الخارج ايضـــا ..!!.

* * *

وكانت السرايا المتلاحقة التى بلغ عددها قبل غزوة بدر ثمانى سرايا — والتى كانت تخرج من المدينة تجوب الطرقات المؤدية الى مكة .. كانت هذه السرايا اكبر مخطط نفذه الرسول عليه السلام لحماية الدولة الجديدة خارجيا ، سواء كان الأعداء مشركى مكة ، أو أحزاب البادية الضاربين حول المدينة وفقـــا للسياسة المعروفة « الهجوم افضل وسيلة للدفاع » !!.

« وقد بدأت السرايا تتجه الى الطرق الرئيسية التى تمر منها قريش بقصد افهامها حقيقة الموقف ، وان كانت لم تصادر هذه القوافل أو تتحرش بها ، كما أنها كانت تتصل بالقبائل الضاربة على جنبات الطريق ، وتعقد معها احلافا ، وبذلك تحرم قريشا من الاستعانة بهـــذه القبائل أو اللجوء بقوافلها الى حمايتهـــا ،

اذا هددت بالاعتداء عليها او مصادرتها . ولم يزد الأمر عن هذه المظاهرات العسكرية طوال عشرة اشهر من بدء تسيير دوريات المدينة وسراياها »(١) .

وقد اجمعت كتب المغـــازى والســـير على تلاحق السرايا وتتابعها بحيث غطت المساحة الزمنية لفترة السنوات العشر المدنية كلها ، وبحيث فرضت الحماية والهيبة الخارجية ــ والأمن الداخلى ــ لدولة الاسلام فى المدينة .

ولعله من المفيد ان نسرد هذه السرايا والغزوات مرتبة حسب سنواتها حتى تكتمل الصورة التى نريد رسمها والهدف الذى نقصده ، وهو ان « الجهاد المستمر » باليقظة المتوثبة هو افضل طرق الحماية والدفاع ...

● ففى السنة الأولى للهـــجرة خرجت السرايا والغزوات التاليـــة :

١ ــ سرية حمزة الى العيص .

٢ ــ سرية عبيدة بن الحارث الى رابغ .

٣ ــ سرية سعد بن أبى وقاص الى الحزار (واد يصب فى الجحفة) .

● وفى السنة الثانية خرجت السرايا والغزوات التالية :

٤ ــ سرية عبد الله بن جحش الى نخلة (بين مكة والطائف) .

---

(١) دولة الرسول فى المدينة للشريف ١٢٩ .

٥ — سرية عمير الخطمى لقتل عصماء اليهودية الشاعرة الهجاءة .

٦ — سرية سالم بن عمير لقتل أبى عفك .

٧ — غزوة ودان .

٨ — غزوة البواط .

٩ — غزوة العشيرة .

١٠ — غزوة بدر الأولى .

١١ — غزوة بدر الكبرى .

١٢ — غزوة بنى قينقاع .

١٣ — غزوة السويق .

● وفى السنة الثالثة خرجت السرايا والغزوات التالية :

١٤ — سرية قتل كعب بن الأشرف .

١٥ — سرية زيد بن حارثة الى القردة .

١٦ — غزوة غطفان .

١٧ — غزوة بحران .

١٨ — غزوة احـــد

١٩ — غزوة حمراء الأسد .

● وفى السنة الرابعة خرجت السرايا والغزوات التالية :

٢٠ — سرية ابى سلمة الى بنى أسد .

٢١ ـــ سرية عبد الله الجهنى الى سفيان الهزلى .

٢٢ ـــ سرية الرجيع .

٢٣ ـــ سرية المنذر (بئر معونة) .

٢٤ ـــ غزوة بنى النضير .

٢٥ ـــ غزوة ذات الرقاع .

٢٦ ـــ غزوة بدر الآخرة .

● وفى السنة الخامسة خرجت السرايا والغزوات التالية :

٢٧ ـــ سرية محمد بن مسلمة الى بنى بكر .

٢٨ ـــ سرية عكاشة بن محصن الى بنّى أسد بالغمر .

٢٩ ـــ سرية محمد بن مسلمة الى ذى القصة .

٣٠ ـــ سرية زيد بن حارثة الى بنى سليم .

٣١ ـــ سرية زيد الى العيص .

٣٢ ـــ سرية زيد الى بنى ثعلبة .

٣٣ ـــ سرية زيد الى جذام .

٣٤ ـــ سرية زيد الى بنى فزارة .

٣٥ ـــ سرية دومة الجنـــدل .

٣٦ ـــ سرية على بن أبى طالب الى فدك .

٣٧ ـــ سرية لقتل أبى رافع اليهودى .

٣٨ ـــ سرية لقتل أسير اليهودى .

٣٩ ـــ سرية كرز الى العرينيين .

٤٠ ـــ بعث عمرو لقتل ابى سفيان .

٤١ ـــ غزوة بنى لحيـــان .

٤٢ ـــ غزوة الحديبية .

● وفى السنة السابعة خرجت السرايا والغزوات التالية :

٤٣ ـــ سرية عمر الى هوازن .

٤٤ ـــ سرية ابى بكر الى بنى فزارة .

٤٥ ـــ سرية بشير بن سعد الى بنى مرة .

٤٦ ـــ سرية غالب الى اهل الميفعة قرب المدينة .

٤٧ ـــ سرية بشير الى غطفان .

٤٨ ـــ سرية السلمى الى بنى سليم .

٤٩ ـــ غزوة خيبر .

● وفى السنة الثامنة وقعت السرايا والغزوات التاليـــة :

٥٠ ـــ سرية غالب الى بنى الملوح .

٥١ ـــ سرية غالب الى فدك .

٥٢ ـــ سرية شجاع الى بنى عامر .

٥٣ ـــ سرية كعب الى ذات أطلاح .

٥٤ ـــ سرية مؤتة .

٥٥ ـــ سرية عمرو الى ذات السلاسل .

٥٦ ـــ سرية ابى عبيدة الجراح الى جهينة .

٥٧ — سرية أبى قتادة الى نجد .

٥٨ — سرية ابى قتادة الى بطن أضحة .

٥٩ — فتح مكة .

٦٠ — سرية ابى عامر الى أوطاس .

٦١ — سرية قيس الى صداء .

٦٢ — سرية عيينة الى بنى تميم .

● وفى السنة التاسعة خرجت السرايا والغزوات التالية :

٦٣ — سرية هدم صنم طيىء .

٦٤ — سرية هدم مسجد ضرار .

٦٥ — غزوة تبوك .

● وفى السنة العاشرة خرجت السرايا التالية :

٦٦ — سرية خالد الى نجران .

٦٧ — سرية على الى بنى مذحج .

٦٨ — بعض البعوث الى اليمن .

* * *

ان خروج هذه السرايا بدأ بعد ما يقرب من ستة أشهر فقط من وصول الرسول الى المدينة ، وبعد تنظيمه لداخلها ، ثم توالت ، فكانت المدة التى تفصل بين بعضها والبعض لا تزيد عن شهر ، ولعلها كانت تسير على سياسة خاصة ، يلاحظ فيها ما يروج من شائعات ،

وما يتوقع من حركات لأهل مكة ، وما يمكن أن يكون مارا من قوافل قرشية ، قد تفكر بعضها فى الاغارة على أطراف المدينة ، أو قد تلتقط الأخبار بطريقة الاختطاف ، أو غير ذلك .

ولم تكن مهام هذه السرايا مقصورة على الدفاع فقط ، بل كان من مهامها القاء الرعب فى قلوب الذين قد تسول لهم نفوسهم الاعتداء على المسلمين واشعارهم باليقظة الدائمة لأهل المدينة ، ومطاردة القوافل التى يملكها مشركو مكة ، واطلاع الجبهات الخارجية على الأخلاق والنماذج والقوى الاسلامية العالية الفتية ، بالاضافة الى أنها تمثل لونا من الحرب النفسية الباردة المستمرة (اقتصاديا واستراتيجيا) ، والى أنها تقوم بالتقاط أخبار عن أعداء الدين الجديد ، وبخاصة قريش ، والموالين لها .

* * *

وقد انتهت الأمور الى ما كانت ستئول اليه حتما ، وتجسم الالتحام الكبير بين المدينة ، وأعدائها ، بعد هذه الحرب الاعلامية والنفسية الباردة التى مثلتها مرحلة السرايا الأولى ــ تجسم هذا الالتحام فى حرب واضحة ساخنة ــ كاقوى ما يكون الالتحام ــ فى غزوة بدر الكبرى .

ونحن نعتبر هذه الغزوة الحاسمة ــ العمل الخارجى الأكبر الذى ثبت أركان الدولة الاسلامية الناشئة ..

ولعل هذه المكانة لغزوة بدر ، تتضح أكثر عندما ننظر فى وقائع ونتائج هذه الغزوة نظرة مستقلة متكاملة !!.

* * *

بدر .. مصير دعوة :

فى السنة الثانيـــة من الهجرة انتصر المسلمون فى بدر ، وفى السنة الثالثة انهزم المسلمون فى احد ، وفى السنة الخامسة من الهجرة حوصر المسلمون فى المدينة وتدخلت يد العناية الالهية لتنقذهم من هلاك محقق ، وفى السنة السادسة من الهجرة منع المسلمون من اداء العمرة .. وعقدوا صلح الحديبية وهو صلح كان — فى ظاهره على حساب المسلمين ، وان كانت يد العناية الالهية قد حولت هذا الصلح لحسابهم .

* * *

لننظر فى هذه التواريخ وهذه الأحداث نظرة مقارنة لا لنعرف مكانة (بدر) بالنسبة للدعوة الاسلامية وحسب ، بل لندلف منها الى مقارنة تاريخية مهمة فى عملية تقويم غزوة بدر .

واول ملمح نراه فى هذه المقارنة .. هو انتصار المسلمين فى بدر وهزيمتهم فى أحد ، وهذا الملحظ الأول يكشف لنا أبرز قيمة مثلها انتصار المسلمين فى بدر .

— ونزيد الأمر وضوحا :

عندما هزم المسلمون وشجت رباعية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقتل حمزة رضى الله عنه ، وخسر المسلمون سبعين شهيدا .. فى احد ، بقى المسلمون كدولة وعادوا الى المدينة يضمدون جراحهم ويستعدون لجولة جديدة ، بل وتتابع دخول النـــاس فى دين الله ، ونجح المسلمون فى طرد بنى النضـــير من اليهود على الرغم من كل آثار غزوة احد .

لقـــد كانت وضعية المسلمين قـــد اختلفت تماما فى أحـــد عن وضعيتهم فى بدر ، ولقد اصبح الآن من المتعـــذر القضـــاء على الكيان المادى والمعنوى لهذه الفئة المؤمنة بربها والتى تتخذ من المدينة عاصمة ومن الرسول عليه الصـــلاة والســـلام قائدا ومن القرآن دستورا . اما فى بدر فالوضع كان مختلفا تماما ..

فكان هذا أول لقاء جاد فى التاريخ بين قوى الايمان وقوى الشرك ، وكانت الذخيرة الحية للمسلمين تقف فى موقف عصيب .. قليلة العدة والعدة ، لا تملك من اساليب النصر الا الايمان الذى يحترق به داخلها .. وكل المظاهر المادية تقف فى جبهة ابادتهم والقضاء على كيانهم الناشىء ، فاليهود فى المدينة لا عهد لهم ولا ميثاق ينتظرون أية فرصة مواتية ، وقريش فى مكة مغرورة بقواها الطاغية وخاصة ان محمدا عليه السلام لابد ان يعود يوما ليلقى جزاء خروجه على دين الآباء والأجداد .

والمنافقون بقودهم عبد الله بن أبى بن سلول يزرعون الغام الفتنة والشك ويروجون أن هـــذه القوة الناشئة مجرد ظاهرة عارضة لن تلبث ان تزول ، والشىء الأكثر من ذلك ان المهاجرين مهما تكن تضحيات اخوانهم الأنصار لا يزالون يشكلون فى المدينة ظاهرة تحتاج الى كبير عناية كى تجد أوليات الحياة على أرض المدينة .. وتستقر وتنمو وتؤدى دورها فى حمل تبعات الدعوة فى المدينة بعد مكة !! ..

والأنصار .. كانوا بدورهم فى موقف الذى يمثل دخول المعارك خارج اسوار مدينة الرسول شيئا ليس واجبا عليهم ، اذ ان شروط بيعتهم للرسول عليه السلام لم تنص على القتـــال خارج المدينة ، وانما نصت على أن يحموا الرسول حمايتهم لذويهم ونسائهم واموالهم ، اى داخل المدينة ، اما القتال خارج المدينة ،

فهو مرحلة كانت تحتاج الى تمهيد بل الى تغيير فى شروط هـــذه البيعة !!..

وتأتى بالاضافة الى كل ذلك ظروف « بدر » نفسها ، فالمسلمون لم يخرجوا فيها لحرب ، وانما خرجوا للاستيلاء على قافلة تجارية لقريش عاد بها أبو سفيان من الشام فى طريقه الى مكة . خرجوا للاستيلاء عليها تعويضا عن أموالهم التى أممتها وصادرتها قريش وحرمتهم من حملها الى مهجرهم الجديد .

كما أن نفوسهم — فضلا عن الاستعداد المادى — لم تعد لهذه الحرب ، ولم تهيأ لها بفعل الظروف التى ذكرناها .

ومن هنا كانت « بدر » ابادة للمسلمين ما لم يتم النصر .. كانت بدر « بئرا » يمكن أن تغرق فيه الدعوة لو أنها كانت دعوة بشرية يقود أمرها بشر .. كانت بدر « واديا » يمكن أن يسقط فيه المسلمون فلا تقوم لهم فى التاريخ قائمة أبدا .

ولقد ترجم الرسول عليه الصلاة والسلام هـــذه الحقيقة حين خاطب ربه ضارعا اليه .. طالبا العون والنصر فى هذه الظروف البالغة الخطورة قائلا : « اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد فى الأرض » !!.

* * *

ان من أبرز الأسس التى قامت عليها حضارتنا مبدأ خطيرا تأكد فى « بدر » وادى الى النصر ، وتأكد فى « أحد » تأكدا قويا من سلوك الرسول عليه السلام ومن الوحى ، مع انه قد غير

نتائج المعركة .. حيث كان الرسول يريد القتال داخل المدينة ولكن القوم اشاروا عليه بالخروج .. ذلك هو مبدأ « الشورى » ..

المبدأ مبدأ .. هكذا علمنا ديننا ، وكل مبدأ فى التـــاريخ لابد أن يتعرض لبعض الاختبارات .. لبعض عوامل المد والجزر ، ربما نتيجة سوء التطبيق ، وكثير من الناس تتهاوى مبادئهم تحت مطارق تجربة ما ..

لكن فى الاسلام : المبدأ واحد لا يتجزأ ، ولا ينقلب .. هو مبدأ لابد أن يسود مهما كانت استفزازات بعض تجارب الواقع ..

وانعقد اول مجلس حرب فى الاسلام .. فى بدر .

ووجه القائد الرسول حديثة الى الطوائف الممثلة فى الجيش .. الى المهاجرين والأنصار من أوس وخزرج قائلا للجميع : اشيروا على أيها الناس .. وكان الأهم هو رأى الأنصار ..

وقد فهم سعد بن معاذ .. أن الناس المعنيين هم الأنصار ، ذلك لأنهم اكثر الجيش ، كما انهم وحدهم الذين ما زال موقف الحرب بهم خارج المدينة غير واضح الأبعاد ، فلربما كان فى نفوسهم من ذلك شيء .. وبعد ان تكلم المهاجرون .. قام سعد يتكلم عن الأنصار ..

ولقد تكلم (سعد) كلمات عدت من أكثر ما اخرج لسانه من كلمات طيبات فأجاب الرسول بسرد قصتهم معه .. مدلفا من ذلك الى النتيجة الحتمية التى يراها ...

قال ســـعد :

« لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا ان ما جئت به هو الحق ، واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة .. فامض يا رسول الله لما اردت فوالذى بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء .. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله » !! ..

وكان لكلام سعد الذى جاء بعد كلام أبى بكر وعمر والمقداد ابن عمرو أوقع الأثر فى نفس الرسول .. ولاسيما بعد كلمات المقداد الذى قال للرسول فيها بأصدق لهجة ايمانية تكشف معادن الرجال الذين صنعهم هذا الدين العظيم :

« امض يا رسول الله لما أمرك الله فنحن معك لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون .. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد (يعنى مدينة بالحبشة) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه » !!.

وانتهى المجلس بتفويض الرسول عليه السلام بالحرب ، وهو تفويض لا اكراه فيه ، نابع من ايمان المسلمين انفسهم ، وليس تفويضا صوريا سبقه اتخاذ القرار .. وهم مجرد موقعين او مصفقين .. كلا .. ففى « أحد » خرج الرسول على الرغم من ان رايه كان مخالفا للخروج .. ولما انهزم المسلمون نزل الوحى بتاكيد الشورى رغم الهزيمة — كما ذكرنا ..!!.

وفي الحروب لابد من مخابرات ، ولابد من طريقة لجمع المعلومات .. وهذه المخابرات وتلك المعلومات يجب أن يستعمل لها رجال أكفاء مخلصون لهم مثل عليا وقيم أخلاقية وإلا أصبح جهاز المخابرات والمعلومات أداة لهدم أساس البناء .. وتحول الى حرب على الأمة بدلا من أن يكون حربا عنها ..!!.

ولم تفت الرسول عليه السلام أهمية المخابرات والمعلومات .. فلما أمسى بعث عليه السلام عليا والزبير وسعد بن أبى وقاص يلتمسون له الخبر فأصابوا زاوية فيها « أسلم » غلام ابنى الحجاج « وعريض أبو يسار » غلام بنى العاص ابن سعيد ، فأتوا بهما الى رسول الله بينما كان رسول الله يصلى فسألوهما ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا لنسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبى سفيان فضربوهما فلما أذلقوهما « شدوا عليهما » قالا : نحن لأبى سفيان فتركوهما .. وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتين ثم سلم .. فقال اذا صدقاكم ضربتموهما واذا كذباكم تركتموهما .. صدقا والله انهما لقريش .. ثم سألهما الرسول عن مكان قريش وعن عددهم الذى لم يعرفوه ، لكن الرسول عرفه من عدد ذبائحهم في اليوم .. ثم سأل عن أشراف قريش بينهم(1) .

ولم يكتف الرسول عليه السلام بهذا ، بل انه كان قد بعث « بسبس بن عمرو » و « عدى بن أبى الزغباء » فمضيا حتى نزلا بدرا يتعرفان على قريش وأناخا الى تل قريب من الماء .. فسمعا جاريتين من الجوارى تقول احداهما لصاحبتها : انما تأتى العير غدا أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك .. فعرف « بسبس وعدى » أن « أبا سفيان » سوف ينيخ غدا في هذا المكان ..

(1) الطبرى حوادث السنة الثانية للهجرة .

وهكذا كان جهاز المخابرات وجمع المعلومات يؤدى دوره فى بدر .. ويؤديه – وهو الأهم – فى الاتجاه الصحيح ..

وفى الجبهة الأخرى للمعركة كانت تقف بقايا أحقاد قبلية تجمعها وحدة العنصر وعبادة القديم على ضلاله وزيفه ...

كان يقف أبو سفيان الذى غاظه من الاسلام أكثر ما غاظه أن يخرج من بنى هاشم نبى يسبقَ بنى أمية ويبزهم بالشرف .. هكذا تصور هذا القبائلى القومى الأمور .. انه لم يستطع بحكم تكوينه الثقافىّ والاجتماعى أن يدرك أن ثمة حضارة انسانية تخاطب كل الناس تهبط من السماء ..!!.

انه كان كغيره من القوميين لا ينظرون الى أكثر من أنفسهم وعشائرهم ...

أو كان كغيره من القوميين الآخرين ، يستتر فى النزعة القبائلية القومية لينشر ميوله الالحادية ونزعة الكبر والسلطة فيه ..

وأيا كان ، فقد برزت القومية العربية اللا اسلامية بكل ثقلها .. أو كما قال الرسول الكريم لصحابته : « هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها » .. برز عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البخترى ابن هاشم ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ابن نوفل ، وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث ، وزمعة ابن الأسود ، وأبو جهل ، وأمية بن خلف ... الخ ... الخ ..

ولما حاول عتبة أن يهدىء من جاهلية زملائه فى « بدر » ويردهم الى مكة تاركين محمدا وصحبه لبقية العرب والناس سبه زعيم الجاهلية القومية « أبو جهل » !!.

وقد أشاع ابو جهل بين المشركين الذين معه كلمته المشهورة :
« والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم ثلاثا وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمور وتعزف القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ابدا » .

وقد ظل شعار ابى جهل هذا شعارا لكل الحركات الجاهلية والقومية اللا اسلامية .. من حب للفخر وشرب للخمور وعزف على القيان الى آخره ... !! .

ـــ وهكذا كان لقــاء بدر امتحانا للاسلام والمسلمين .. كان حصاده الأخير يعنى انفتاحا جديدا على الحقيقة الانسانية .. وبداية جيــدة لعصر الانسانية الصحيحة . وقضاء على النفوذ القبائلى والقومى والتفرقة العنصرية وعصر الطبقات ..

وقد شهدت بدر أروع مثل قدمته الحضارة الناشئة .. فى ظروفها تلك ، فقد قتل بلال « العبد فى ظل الجاهلية » سيده امية بن خلف ...!!.

وكان هذا الحادث العابر تغيرا فى موازين القيم العالمية .. لقد بدأ عصر اصبحت السيادة فيه للقيم الأعلى سواء حمل هذه القيم عبد أو سيد .. وقد مثلت بدر أخطر أبواب هذا العهد .

ولم تكن بدر معركة تحتمــل الهزيمة أو النصر بالنسبة للمسلمين .. لقد كان النصر الحاسم المذل للنفسية المشركة ، والرافع للنفسية الاسلامية هو حلها الوحيد ..

من هنا اعطى الله وعده الأكيد للمسلمين بالنصر فيها : **« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم »** .. ومن هنا نزلت الملائكة : **« انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين »** ..

ــ وبالالتحام المشترك بين السماء والأرض فتحت بدر باب المسيرة الجديدة فى التاريخ الاسلامى .. مسيرة الدولة الاسلامية الثابتة الأركان ... القوية الدعائم .. التى تحارب وتنتصر وتذل الأعداء !!..

خطوات بين بدر والخندق :

بين بدر والخندق مرت دولة الاسلام الناشئة بمجموعة الظروف التى تتعرض لها امة فى مرحلة تثبيت دعائمها ..

مرت ببداية الهزات الداخلية التى جاءت كنتيجة لغزوة بدر ، اذ خاف اليهود والمنافقون المتحالفون معهم استفحال أمر المسلمين الذين اثبتوا وجودهم فى بدر ، واصبحوا قوة حقيقية ..

وكان من نتائج هذه الهزة الداخلية ان تم جلاء احد الأجنحة الثلاثة الموجودة فى المدينة (٧٠٠ دارع وحاسر) وهم بنو قينقاع . بعد شفاعة كبير المنافقين (ابن سلول) فيهم ، فخرجوا الى أذرعات بالشام حيث هلك هناك أكثرهم .

وقد تهاوت ــ مع جلاء بنى قينقاع ــ قيمة كبرى من قيم الجاهلية وهى قيمة الولاء لغير الاسلام ، فسقطت الروابط التى كانت تصل بنى قينقاع فى الجاهلية ، ببعض الأنصار ، وعلى راسهم عبادة بن الصامت .. وتبرأ عبادة منهم ، بعد غدرهم وحقدهم الواضح على المسلمين .. ونزل فى ذلك قول الله تعالى : **« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم »**(١) .. !! .

---

(١) سورة المائدة : الاية ٥١ .

وبين بدر والخنـدق مرت الأمة الاسلامية الناشئة بالهزات الخارجية التى يمكن ان تكتنف مسيرة اى دولة عقائدية ناشئة !!.

والمسيرة التى تمر بها الدعوات الكبرى لابد أن تتعرض للمد والجزر ، وتخضع لسائر النواميس البشرية ، ولم تشذ الدعوة الاسلامية — عبر مراحلها كلها — عن هذه القاعدة ..

وكانت احـد .. اكبر هزة خارجية تعرضت لهـا الدولة الاسلامية الناشئة . ومن فوق اشلاء سبعين شهيدا يمثلون عشرة فى المائة من تعداد قواتهم التى كانت تواجه مشركين اكثر من اربعة اضعافهم فى العدد والعدة .. من فوق اشلاء حمزة سيد الشهداء ، ومصعب اول السفراء ، وانس بن النضر ، واياس بن عدى ، ومالك بن اياس ، وغيرهم من الشهداء السبعين الذين ينتسبون الى سائر فروع المهاجرين والأنصار .. من فوق اشلاء هؤلاء ، وجروح اولئك المسلمين الآخرين — وعلى راسهم الرسول عليه الصلاة والسلام — تعلمت الأمة الاسلامية — فى مدرسة أحد — الكثير والكثير ...

— تعلمت أول ما تعلمت ضرورة طاعة نبيها وقائدها طاعة مطلقة ، وانه لا مجال للايمان ببعض تعاليمه والافلات من البعض ، ومصير هذا الأسلوب هو الفشل والهزيمة .

— وتعلمت أن القيادة الصحيحة لا تكون بالشعارات والخطب المزخرفة الطويلة ، واعلان الحرب من فوق موائد الرئاسة .. وانما القيادة الصحيحة هى التى تنتمى للأمة ، وتؤمن بأن مصيرها مرتبط بمصير أمتها ، ولا تحرص على نفسها فقط .. هذه القيادة هى تلك التى تتقدم الصفوف ، وتصاب بمثل ما يصاب به عامة المجاهدين ...

ــ وتعلمت ، وتعلمت معها الانسانية لونًا جديداً من الحب ، لم ترتق اليه علاقة بشرية من قبل ، فقد اجتمع حول الرسول عندما تأزم الموقف سبعة من الأنصار ، ترر كل منهم أن يفديه بنفسه ، ومازال كل منهم يقاتل حتى قتل ..

وقد ترس ابو طلحة نفسه بين يدى رسول الله ، وترس أبو دجانة نفسه كذلك ، بينما النبـــل يتـسلاحق على ظهورهما لا يتحول !!..

وقتل لامراة من الأنصار ــ فى احد ــ ثلاثة رجال هم أقرب الناس اليها :

أبوها واخوها وزوجها ، وتتابع نعى الثلاثة اليها واحدا بعد آخر ، فكانت تسأل أولا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما رأت وجهه بعد المعركة لم تتمالك أن صاحت قائلة : « كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله » .

ــ وتعلمت الأمة أيضا .. أن العدة والعدد ليسا المصدر الحقيقى للنصر ، وانما المصدر الحقيقى ــ بعد وجودهما ــ هو الله ، ولا مجال للتخلى عن رجاء الله والشعور الدائم بالحاجة الى عونه ..

والذين يخدعون انفســـهم بالفقر فى الســلاح المســتورد و « التكنولوجيا » ، ويجعلون ذلك سبب تخاذلهم واستسلامهم .. تكذبهم حقائق التاريخ ، فكم من جيش أقل عددا وعدة سحق جيشا يفوقه أضعافا مضاعفة !!.

ــ وايضا .. تعلمت الأمة الناشئة أن ارتباطها يجب أن يكون بالرسالة وقيمها اكثر من ارتباطها العاطفى الشخصى بالرســـول

عليه السلام (فكيف بغيره من ادعياء الزعامة الثورية المنافقين الدجالين ؟) ونزل النص القرآنى صريحا فى ذلك ، يقول لهم : **« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا »** .

— وتعلمت الأمة ايضا .. ان النصر والهزيمة .. يجب ان يوضعا فى مكانهما الصحيح من مسيرة الأمة وقضية بنائها . فلا يدفعها النصر للخمول والاستسلام والانخداع ، ولا تدفعها الهزيمة الى التخلى عن قيمها والارتماء فى احضان اعدائها .. **« وكاين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين(١) »** .

— وتعلمت الأمة — اخيرا — أن الشورى قانون لا يرتبط بنجاح فى موقف وسقوط فى آخر .. انه القاعدة ، ولو ادى فى بعض الأحيان الى نتائج سيئة !!.

وعندما ينتهى التشاور فى مرحلة اتخاذ القرار ، لا سبيل — بعد ذلك — الى التراجع ..

وهكذا تنزل القرآن يقعد بعد الهزيمة : **« وشاورهم فى الأمر »** كما قعد الرسول القاعدة الأخرى ، حين رفض التراجع الى الراى القائل بالبقاء فى المدينة — بعد ان لبس لباس الحرب ، وقال : **« ما ينبغى لنبى لبس لأمته ان يضعها حتى يقاتل »** ..

انهما قاعدتان تكمل احداهما الأخرى : القرار بالحرب .. الذى هو حق الأمة .. والاستعداد للحرب .. الذى هو واجب القـائد !!.

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٦ .

وانضم الى غزوة « أحد » حادثان آخران كان لهما تأثيرهما القوى على نفوس المسلمين ، وعلى مسيرة الدعوة ...

ــ احدهما : استشهاد بعض المسلمين فى السنة الثالثــة للهجرة ــ عام احد ــ (يوم الرجيع) حين بعث الرسول عليه السلام نفرا منهم عاصم بن ثابت ، ومرثد بن ابى مرثد ، وخبيب ابن عدى ، وعبد الله بن طارق ، وزيد بن الدثنــة .. فقتلهم بنو لحيان من هذيل فى الطريق ، وباعوا زيدا وخبيبا لقريش ، فقتلوهما أيضا ..!!.

وخبيب هو القائل اثناء موته :

ولست ابالى حــين اقتــل مســلما
على اى جنب كان فى الله مصرعى

ــ وزيد هو القــائل حــين موته ــ ردا على ســؤال لأبى سفيان :

« والله ما احب ان محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وانى ــ فى سبيل ذلك ــ جالس الآن فى اهلى » ..!!.

ــ والحادث الثانى : استشهاد سبعين مسلما من خيار المسلمين فى « بئر معونة » .. ذهبوا لدعوة اهل نجد الى الاسلام ، بناء على رغبة عامر بن مالك (ملاعب الأسنة) وعلى اجارته لهم ، فأغار عليهم بعض قبائل بنى سليم ، وقتلوهم عن آخرهم !!.

* * *

دولة ثابتة الدعائم :

لكن هذه الهزات الخارجية لم تغير من امتداد الدعوة الاسلامية شيئا.!! كانت الدعوة تشق طريقها فى ليل الحياة الجاهلية كما تشق اشعة الشمس طريقها فى الصباح ..

لقد كانت قدرا لابد منه ، وان اعترضته بعض الغيوم ..

وفى ظلال الرسول كان المسلمون يتفيأون معانى الأمن والرضا والشعور بالسكينة كلما حزبهم أمر من الأمور ..

كان النبى عليه الصلاة والسلام واثقا كل الثقة من وعد ربه .. وكان يتصرف على هذا الأساس ..

ومع أن العامين اللذين اعقبا بدرا كانا مفعمين بالمتاعب ، الا ان ظلال النبوة الكريمة .. قد حولت هذه المتاعب الى معنى جميل يكتنف الحيـــاة فى المجتمع الاسلامى الناشىء المجاهد .. بل حولت هذه المتاعب الى نصر حقيقى .. والى تدعيم أكيد لأركان الدولة الناشئة !!.

دولة قادرة على الحوار :

لقــد تم ــ بايجاز ــ تحويل المدينـــة الى جزيرة اسلامية خالصة .. ليس فيها « جماعة » تقف ــ كقوة متميزة ــ ضد الجماعة الاسلامية ..

فالقوة المتميزة الداخلية الكبرى كانت تتمثل فى اليهود ...

ولم يكن خطرهم متمثلا فى وجودهم المتميز فحسب ، بل تمثل خطرهم فى طبيعتهم المعروفة عبر تاريخهم كله !!.

ومنذ اللحظة الأولى لدولة المسلمين فى المدينة ، وعلى الرغم من الصحيفة ، فان اليهود اخذوا يدخلون فى حوار غير كريم مع الجماعة الاسلامية الناشئة !!.

والحوار حق لكل الناس .. بشرط أن يقوم على اساس اظهار الحقائق ، ويهدف الى الوصول للحق !!.

لكن اساليب اليهود — سابقا ولاحقا — فى الحوار ، كانت هدامة ، بل كانت أسلوبا استفزازيا اعلاميا يعتمد الكذب و « الميكيافيلية » الدنيئة ..

— لقد انكروا النصوص المتعلقة بالنبى فى التوراة ، وتعمدوا اخفاءها .. وهذا مخالف لأصول الحوار الكريم الهادف .

انهم قابلوا اسلوب القرآن الكريم فى الحوار ، ذلك الأسلوب الذى يبدأ بتكريم الخصم لتهدئة روعه ، ولا يضيره أن يعترف بالحق الموجود مع الخصم .. ان كان معه الحق (القرآن مدح بنى اسرائيل حين استحقوا ذلك ، وناداهم بيا بنى اسرائيل — اى يا ابناء عبد الله ورسوله يعقوب) !!..

لقد قابلوا هذا الأسلوب — باستثناء بعض أحبارهم المخلصين الذين اسلموا — بالتشهير والتحريف والمعارضة بالباطل .. وانكار ما عندهم بشأن النبى محمد وصفاته ، بل انهم — وهم اهل كتاب — كانوا يتفقون فكريا (وعمليا بالطبع) مع الوثنيين المنكرين لكل الأديان !!.

ــ بل بلغ الأمر أن قال الحارث بن زيد لهم : هلموا نحتكم الى توراتكم ، فرفضوا .. وقد كان بعضهم يتظاهر بالاسلام ، ثم يعلن كفره بعد ذلك ، ليحط من قدر الاسلام ، ويظهر أنه انما تركه من علم وخبرة به !!.

ــ وقد شطوا فى عداوتهم الفكرية ، واجترائهم على آداب الحوار ، فعمدوا الى استبدال بعض الفاظ القرآن الكريم بغير ما انزل الله .. لكن الله كشفهم وحفظ كتابه ، فحاولوا تغيير المعانى وتحميلها ما لا تحتمل من تأويل ، بما يتفق مع أهوائهم المنحرفة !!.

ــ هذه الحرب الفكرية المتجاوزة لقواعد الحوار العلمى الكريم ..

ــ هذه الحرب المصحوبة ــ فى الوقت نفسه ــ بتخطيطات وتكتلات سرية ، واستفزازات علنية ، ومحاولات مستمرة لاثارة الجاهلية القديمة بين الأوس والخزرج ..

ــ هذه الحرب اليهودية ، ما كان يمكن مهادنتها والعيش معها تحت شعار « حل سلمى عادل » أو « اتفاقية » .. أبدا !! .

ــ وهؤلاء اليهود الذين حولوا « صحيفة النبى » الى حبر على ورق .. ليسوا أهلا لأية اتفاقية .. بعد ذلك !!.

فليس احد اكرم خلقا من الرسول ..

ولا توجد صحيفة أعدل من صحيفته ..

ولم يثبت ــ تاريخيا ــ ان اليهود قد غيروا جلدتهم ..

واى صـــلح « حقيقى » يبرمه حاكم مع هؤلاء الخونة ، هو تعبير عن غفلة وجهالة بأبسط معطيات التاريخ !! .

ـ ليكن هناك صلح استراتيجى (تكتيكى مرحلى) معهم ..

ـ ليكن فى حالة من حالات الهزيمة والخوف والفشل .

ـ لكن الظن بأن اليهود اهل للصلح والسلام العادل الدائم .. هذا الظن اقل من ان يوصف بأردأ التعبيرات الممكنة !!.

هكذا نتعلم من ظلال النبوة التى لا تمتـــد الا فوق أرض الحقيقة .. ولا يستظل بها الا الباحثون عن الحق .. والحق المجرد !! ..

دولة قادرة على الحرب والنصر :

وقد انتهى الصراع الداخلى بين اليهود والمسلمين ـ فى مرحلته الأولى ـ باجلاء بنى قينقاع ـ كما ذكرنا ـ وهم ابرز العناصر المؤثرة ـ جغرافيا ـ فى داخل المدينة ، بعد ان تجراوا فاعتدوا على كرامة امراة مسلمة ، وبعد ان استفزوا الرسول بكلمات تشبه التهديد !!.

ولم تحل هزات « أحد » و « يوم الرجيع » و « بئر معونة » التى تلت بدرا ، من الاستمرار فى اجلاء القوى المناوئة الداخلية .. فكان اجلاء بنى النضير ، خطوة اخرى بعد اجلاء بنى قينقاع !!.

والذى يبدو ان هذه الهزات قد اطمعت يهود بنى النضير فى المسلمين ، فائتمروا على قتل الرسول ـ وهو فى دارهم ـ

وكلفوا « عمر بن جحاش » القاء حجر على الرسول من فوق سطح احدى دورهم ، اثناء وجوده بينهم !!.

لكن الرسول تنبه لمكرهم ، وانصرف دون أن يعرفوا أنه عرف مؤامرتهم ، ثم ارسل اليهم « محمد بن مسلمة الأوسى » يخبرهم بنقضهم العهد ، ويأمرهم بالخروج من المدينة !!.

كان الخبر صاعقة وقعت على رءوس التكتل المعادى للاسلام فى داخل المدينة كلها .. فجـلاء بنى النضير يعنى رجحان كفة المسلمين ، وسيطرتهم تماما على المدينة ..

ولقد شعر المنافقون بالحبل يقترب من أعناقهم ، بعـد ان سمعوا الخبر ، ولقد حاول عبد الله بن ابى بن سلول — زعيم النفاق — تحريض بنى النضير على العصيان .. لكن موقف الرسول كان احزم واسرع ، بحيث لم يترك فرصة لالتحام هؤلاء الأعداء .. ولقد امتلأت قلوبهم جميعا بالرعب ، حين رأوا المسلمين يستبسلون فى حصار بنى النضير ، ويحرقون بيوتهم ، ويقطعون نخيلهم ، وينكلون بهم اشد تنكيل !!.

— وبدت المدينة ، بعـد جلاء بنى النضير ، ومن قبلهم بنو قينقاع ، بدت — بحق — جزيرة اسلامية .. للاسلام فيها الكلمة العليـا !!.

ولقد تأكد — لدى التكتلات المعادية كلهـا — أن الصراع مع المدينة ، بطريق تأليب الجبهـة الداخليـة اسلوب فاشل ، وانه لابد من اسلوب آخر ، يعتمد الوضوح والتجميع والحرب المباشرة التى تضم أطراف التكتل المعادى للاسلام كلها ..!!.

وكانت غزوة الأحزاب والخندق ، هى التعبير الضخم عن هذا الاتجاه . وبانتصار المسلمين فى هذه الموقعة الفاصلة — وليس قبل ذلك — يمكن أن نقول : ان دولة الاسلام فى المدينة ، قد تخطت مرحلة الدفاع ، واصبحت ثابتة الأركان .. تملك زمام المبادرة !!.

الخندق .. قمة مرحلة الدولة :

كانت غزوة الأحزاب غزوة قاسية ، انصهرت فى بوتقتها المعادن التى أخرجها الاسلام فظهر منهـــا ما كان سليما اصيلا اشتمل عليه الاسلام كل كيانه ، وظهر كذلك ما كان مزيفا لا يملك الا طلاء خارجيا ، ولم يملك الاسلام عليه كل كيانه بعد .

وفى هذه الغزوة اخرجت الجزيرة العربية — بكل أطراف الوجود فيها — كل ما ادخرت من حقد ، وكل ما اضمرته نحو القوة الاسلامية الناشئة من نوايا الهـــلاك والتدمير والقضـــاء الشامل عليها ...

اجتمع المشركون المكيون الذين ظهر عندهم النور فطردوه .. واجتمع المشركون من سائر الجزيرة الذين رأوا النور يطرد من بيته الأول ، فطاردوه هم كذلك ..

واجتمع اليهود .. منبع الحقد على التراث النبوى كله .

واطبقت الحلقة على المسلمين .. وزلزلوا زلزالا شديدا .. ومن بين مخالب الظلام استخلص الله شمعة من الشموع التى توهجت فجاة .. وكان من قدر الله أن اخرج المسلمين على يدها من بين هذا الظلام الجاهلى المطبق !!.

وكانت هذه الشمعة .. هى ذلك الرجل الوثنى الذى أسلم فى هذه الظروف الكئيبة .. هى « نعيم بن مسعود » .. من غطفان !!.

وعندما جاء نعيم يعرض على الرسول اسلامه ، لفت الرسول نظره الى انه فرد واحد ، والى أن قيمته تتركز فى مدى اعمال فكره فقط .. وقال له — بالتالى — قولته المشهورة : « انما انت فينا رجل واحد ، فخذل عنا »(١) .

ونجح نعيم بهذه السياسة المناسبة فى الايقاع بين قريش واليهود ، وعلمنا بنجاحه كيف ان الشمعة الصغيرة قد تبدد ظلام ليل كلوح !! .. وتم نصر الله ، وحفظ المسلمون قصة نعيم ، وتجاهلوها فى معارك كثيرة بعد ذلك !! .

* * *

ان نعيم بن مسعود لم يتقدم لهذا العمل الفدائى ، ولم يدخل هذا الدين ، فى ظروف عادية ، يحتمل فيها اية شبهة مصلحية مادية .. وما كان أحد يستطيع التكهن بالمستقبل الذى ينتظر هؤلاء النـــاس ، بل ان بعض المسلمين انفســـهم قد اظلمت الدنيـــا فى وجوههم ...

ان ايمان نعيم ايمان نموذجى يصلح كأبلغ رد على الماديين الجدليين الذين يلتمسون لكل رأى او فكرة محركا ماديا ..!!.

لقد انضم نعيم وهو يعلم انه انما ينضم الى قافلة معرضة للابادة ، وانه سينال نصيبه من هذه الابادة .. لكن فطرة نعيم

كانت نقية غير مشوهة ، وبالتالى ، فلم يفهم ان العقيدة تخضع لظروف مادية خارجية تتقلب فى النفس والعقل تبعا لها .. انما هى قضية تغيير النفس والعقل تغييرا جذريا داخليا لا يقبل التبعية لعامل خارجى ، مادى أو غير مادى !!.

ولقد بدأ نعيم يخدم عقيدته الجديدة — فى ظل التوجيه الكبير للرسول — بدراسة الظروف المحيطة بالمعركة دراسة واعية مستوعبة ، ولم ينس فى الوقت نفسه الامكانات المتاحة ، باعتباره صديقا لليهود ، وباعتباره محل ثقة أهل مكة .. كما أنه بالتأكيد قد استفاد من أفكاره السابقة التى يمكن أن يكون قد أثر فيها وعيه بأساليب اليهود الذين امتازوا بالتخطيط والدراسة والعمل الواسع الذكى ، بالاضافة الى افادته من تراث قبيلته « غطفان » !!.

والذين يعيشون فى ظروف الخندق — كالمسلمين سابقا أو لاحقا — ملزمون فى عملهم برسم خريطة لأعدائهم ، ووضع كل منهم فى مكانه الملائم على الخريطة .. مع ملاحظة التمييز بالألوان المختلفة بين الأعداء العقائديين ، وبين أعداء الفكر والسياسة والاقتصاد وما الى ذلك ، ومع أخذ الامكانات المتاحة بعين التقدير ، مضافا الى ذلك ما يقدمه العلم ، وما يعطيه التاريخ !!..

ومن الجدير بالاشارة فى نهاية رحلة بناء الرسول — عليه السلام — للدولة ، من خلال هذه المعابر التاريخية ، التى انتهت بالخندق ..

— الجدير بالاشارة والتأكيد أن أعداء الاسلام الذين واجهوا المسلمين فى الخندق ، هم انفسهم .. القوالب الفكرية التى يواجهها المسلمون اليوم .. انهم الأحزاب ذاتها .. اليهود .. والوثنيون

الماديون (الشيوعيون) المتضافرون مع اليهودية .. والمنافقون المتظاهرون بالاسلام ، من ذيول التبشير ، ورؤساء العشائر القومية وملوك الطوائف المنتشرين فى ساحة العالم الاسلامى الفسيح !!.

ان هؤلاء الأحزاب ـ قدامى ومحدثين ـ هم الجاهليـــة التى لن تقبل معايشتنا الا برضوخنا لظلامها وضلالها وضياعها : **« ولن ترضى عنك اليهود ، ولا النصارى ، حتى تتبع ملتهم » ..!!.**

انهم الجاهلية المحيطة بالخندق .. الخندق الذى لم نصنعه بعد ، والذى ما زال فكرة غائمة فى ضمير المسلمين المبعثرين ، الباحثين عن « سلمان » يفكر ، وعن « نعيم » ينفذ !! حتى تسير القافلة الاسلامية المحاصرة باتجاه النصر المأمول ، وحتى تبنى الدولة الاسلامية المرتقبة ، فى ظلاله عليه الصلاة والسلام امتدادا لدولته الأولى .. دولة الهجرة .. دولة ما بعد الخندق ..!!.

* * *

محمد ﷺ يصنع الحضارة

هذا النبى عليه الصلاة والسلام ، جاء يطرح مفهوما فذا للحضارة .. جاء يجمع فى ظلال النبوة — على مستوى السلوك — وفى ظلال النبوة — على مستوى التقعيد معنى متكاملا للحضارة التى تاه فى تحديدها المنظرون .

— الحضارة — فى ظلال النبوة — مستوى انسانى ينتظم كل الجزئيات الفكرية والسلوكية .

— مستوى انسانى ممتد فى الزمن ، يربط بين الدنيا المحدودة والآخرة اللانهائية .

— مستوى انسانى ممتد فى المكان . يكرم الانسان ، ويحدد حقوقه أنى كان ، دون تفرقة على اساس لون أو جنس ..

— مستوى انسانى ممتد فى الوقائع ، فلا جزئية فوق القانون ، ولا جزئية لا مكان لها فى القانون .

— مستوى انســانى ممتد فى المجتمــع والفرد ، والرجل والمرأة ، والقوى والضعيف ، والجسم والروح ، والمادى واللامادى ، والطبيعة وما وراء الطبيعة ، دون انفصامية مصطنعة ، أو تشقيقية قاتلة مدمرة .

والعجيب .. الذى يمثــل أبرز ظاهرة فردية فى التــاريخ أن هذا النبى الكريم قد مثل — بحياته — كل أطوار الحضارة فى مراحل رقيها ، حتى ليخيل للدارس أن حياته — عليه السلام —

حضارة مستقلة ، تتجلى كشعاع وهاج لكل الحضارات الباحثة عن المستوى الانسانى السامق الجدير بالانسانية المتحضرة .

انه لا انفصام فى حياته عليه السلام بين قول وفعل ، وظاهر وباطن ، وجوانب شخصية وجوانب اجتماعية ، واعمال دنيوية ، واعمال أخروية .

انها جميعها كل متسق لا تصطدم وسائله ولا تتعارض غاياته ، وهى كلها ناضجة بالمستوى الانسانى الذى يشكل المضمون الحى للحضارة ...

ففى عالم الفكر كان طلب العلم فريضة ، وعبادة ، وسلوكا ..

-- وفى عالم المادة كان بناء الحياة — بلا حدود رقيقة — تشريعا وعبادة :

« ان قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فاستطاع الا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك اجر » عليه الصلاة والسلام .

— وفى عالم العلاقات الاجتماعية الانسانية ثمة شمول يمتد الى كل صغيرة وكبيرة . « ان ابواب الخير لكثيرة : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتهليل ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتهدى المستدل عن حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف . فهذا كله صدقة منك على نفسك ، وتبسمك فى وجه أخيك صدقة ، واماطتك الحجر والشوكة والعظم من طريق الناس صدقة ، وهديك الرجل فى ارض الضالة لك صدقة » (رواه مسلم) .

ــ وحتى مع الحيوان وهو يذبح ثمة سلوك حضارى أخلاقى لابد ان يتبع « فان قتلتم فأحسنوا القتلة وان ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » (رواه الستة ما عدا البخارى) .

* * *

تبدأ الحضارة مسيرتها ــ فى ظلال السيرة ــ معتمدة على مقومين أساسيين هما : الأفكار والانسان .

وبدون افكار حضارية تمثل الخميرة المعنوية ، أو الطاقة النفسية لا يمكن اشعال مصباح حضارة .

« ان شعار لا اله الا الله » الذى أمر محمد صلى الله عليه وسلم برفعه فى وجه الجاهلية ، جاء انقلابا شاملا على كل المستويات الدينية والاجتماعية ، بنواحيها الفكرية والنفسية والأخلاقيــة والسياسية والسلوكية .

وهو اشعار واضح بضرورة رد الأمر كله الى الله « الحاكم » و « المشرع » ، وتجريد الانسان فردا وجماعة من الخضوع لمقاييسه الجزئية القاصرة واتباع « الهوى » و « الظن » فى كل صغيرة وكبيرة(١) » .

وكان هذا الشعار ــ وهو شعار ممتد فى التاريخ امتداد الحقيقة السمحاء ــ أساسا فكريا انطلقت منه فروع فكرية حددت

---

(١) الدكتور عماد الدين خليل ــ دراسة فى السيرة ١٠٦ .

موقفا حضاريا متميزا ، يمثل الأساس الاسلامى « الأيديولوجى » للحضارة الاسلامية والانسان المسلم !!.

— وكان الانسان الذى استخلصته الحضـــارة الاسلامية من بين التراب الجاهلى ، هو الوعاء النظيف الحى .. الذى جسد افكار هذه الحضارة ، واعطاها بعدها الحياتى ، واساسها الثانى الضرورى .. الانسان .

— ومن الالتحام بين الفكر والانسان فى الزمن — تم ذاك الابداع الذى أطلق عليه « الحضارة الاسلامية » .. تلك التى برزت اسطع ما يكون البروز فى ظلال سيرته عليه الصلاة والسلام .

* * *

الخنـــدق ميلاد حضـــارة :

من الخندق دائما تولد الحضارات المبدعة ...

ولم توجد حضارة ولدت قبل معاناة الحمل والوضع والتعرض لمبضع الجراح .

وكانت الفترة التى بدات بالهجرة ، وانتهت بالخندق هى الفترة التى تعرض المسلمون فيها لآلام الحمل كأشد ما تكون المعاناة .

وثمة موقفان واضحا الدلالة على ميلاد الحضارة فى الخندق لم يلقيا حقهما من التحليل الكافى ، برغم ورودهما فى معظم مصادر السيرة الزكية :

أولهما : يرويه سلمان الفارسى — ودوره فى الخندق مشهور — عندما غلظت عليه صخرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا منه — يقول سلمان :

« فلما رآنى اضرب ، وراى شدة المكان على ، نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، قال : ثم ضرب به ضربة اخرى ، فلمعت تحته برقة اخرى ، قال : ثم ضرب الثالثة ، فلمعت تحته برقة اخرى ، قال : قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما هذا الذى رايته لمع تحت المعول ، وانت تضرب ؟ قال عليه السلام : اوقد رأيت ذلك يا سلمان !! قال : نعم ، قال : اما الأولى فان الله فتح على بها اليمن ، واما الثانية فان الله فتح على بها الشام والمغرب ، واما الثالثة فان الله فتح على بها المشرق »(١) ...

وثانيهما : تلك القولة القوية الدلالة التى قالها الرسول عليه الصلاة والسلام لما انصرف عن الخندق :

« لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » .

فكان كذلك حتى فتح الله مكة(٢) .. وما بعدها .

هكذا فى اصعب لحظات الصراع الدموى .. كانت تولد — فى ظلال النبوة ورؤيتها التاريخية التى لا تخطىء — الاستشرافات المستقبلة للحضارة الجديدة الممتدة الواسعة التى ستدين على سعتها وتباينها لفكر وسلوك النبى الكريم عليه السلام وللصفوة القادرة ، صانعة الخندق وحارسته .

---

(١) ابن هشام ٢٣٠/٣ ، والطبرى ٤٦/٢ .

(٢) ابن هشام ٢٦٦/٣ ، والطبرى ٥٨/٣ .

حضارة زاحفة :

ظهرت المدينة بعد الخندق — عملاقا شب عن طوق الخوف من ضربات الداخل والخارج معا ، وقد بدأت تتجلى للعيون دولة فكرة زاحفة لا مجرد مدينة متناقضة الهوية مع العالم المحيط بها ..

— لقد سقطت قلاع اليهود الثلاث فى داخلها ..

— ولقد فشل التجمع الجاهلى الذى احاط بها احاطة السوار بالمعصم واحس المسلمون بدبيب حياة جديدة فى أوصالهم .

ولم تبعد الأيام ، فقد بدأ شعور الوجود يعتمل فى نفوس المسلمين ، وبدأت مخيلاتهم — وهم الذين كانوا يعيشون فى معتقل أسواره اليهود والوثنيون — ترنو لزيارة محاضن طفولتهم وأماكن مناسكهم التى ابيحت للناس جميعا الا أصحاب الحق الشرعى .

— وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أسبقهم واصدقهم احساسا ، فرأى فى منامه أنه دخل المسجد الحرام .

وانحسرت من الشعور والوجدان ، قبل أن تنحسر على المستوى المادى الاستراتيجى سياسة الدفاع .. وبدأت موجة الهجوم والرغبة فى الأخذ بالثأر ، وايقاف الجاهلية عند حدودها — تأخذ مداها فى المستويين النفسى والخارجى للمسلمين .

ولم يمض غير ستة اشهر — بعد الخندق — حتى بدأ الرسول تنفيذ الاستراتيجية الجديدة .

الشوط الأول من الخندق حتى الفتح :

١ ــ كانت غزوة بنى لحيان التى قام بها المسلمون للأخذ بثأر أصحاب الرجيع بداية الزحف الجديد .

ولقد ظل المسلمون ــ خلال هذه الغزوة ــ يتقدمون فى الطريق المؤدى الى مكة ، ليبرزوا ــ متعمدين ــ زحفهم بأشكال مختلفة ، بعد أن تركوا بنى لحيان ، بغية اقتناع أهل مكة بقوتهم ، ولبداية مرحلة جديدة للدولة الاسلامية .

٢ ــ ولم يقم المسلمون فى المدينة الا قليلا حتى خرجوا لغزوتى بنى المصطلق من خزاعة ، عندما علم الرسول . بأن بنى المصطلق يجمعون له ، ويزمعون الهجوم على المدينة ... وقد التقى الرسول بهم فى « المريسع » (ماء لهم) وهزمهم ، واستولى على أموالهم .

٣ ــ وخلال هذه الفترة ايضا وجه الرســـول عشر سرايا لأنحاء مختلفة فى الجزيرة العربية .

٤ ــ لكن ابرز معلم من معالم الاستراتيجية الجديدة ــ كان صلح الحديبية ، الذى تم فى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .

واهمية الحديبية ليس فى أنها مظهـــر قوى للاستراتيجيـــة الجديدة فحسب ، بل فى انها ابرزت ــ عمليا ــ المنهج الاسلامى فى معالجة القضايا ....

ان استراتيجية الهجوم ــ لا تعنى « الغاء السلام » ، اذا كان ممكنا ، بل تعنى السعى اليه من موقع القوة .

ـ والاسلام لم يأت ليشن الحرب على الناس .. بل على الباطل ، وهو لا يصطدم بالناس الا اذا حالوا ـ بالقوة المسلحة ـ بينه وبين اعلان مبادئه وقضيته الجوهرية فى الارض .

ـ وبالتالى .. فليس من مصلحة الاسلام أن يدخل فى صراع دموى دائم مع قريش . انه لم يأت لقريش وحدها ـ ولم يأت لهداية الوثنية فى الجزيرة وحدها ، وبالتالى فان حصر صراعه فى هــذه الدائرة خســـارة جسيمة للدعوة فى ابعادها وطموحاتها المختلفة !!

ولقد عبر الف وخمسمائة من المسلمين فى خروجهم لأداء العمرة وزيارة البيت الحرام عن هذه الحقيقة ـ عندما اظهروا ما يأتى :

* لم يحملوا معهم من المدينة ـ الا السيوف الموضوعة فى اغمادها على عادة العرب فى اسفارهم .

* ساقوا أمامهم الهدى .

* احرموا من ميقات اهل المدينة (ذى الحليفة) .

* دعوا معهم من القبائل المشركة المحيطة بالمدينة من يريد زيارة البيت الحرام .

* وعنــدما اقتربوا من مكة ، وعلموا بتصميم قريش على الحرب ، طلب الرسول ـ عليه السلام ـ من احد الأدلاء أن يقودهم فى طريق غير مطروقة ، حتى لا يصطدم بهم .

* واشاع الرسول ـ كى تسمع قريش ـ قوله « **لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسالونى فيهــا صلة الرحم الا اعطيتهم اياها** » .

ومع أن الدلائل كانت كلها واضحة على أن الرسول وصحبه انما اتوا لتعظيم البيت الحرام ، لا للقتال ، الا ان قريشا فهمت معنى دخول المسلمين مكة فى اى صورة من الصــــور ، وقررت الا تعترف بالوجود الاسلامى الذى يريد ان يفرض نفسه عليها .

وقد أرسلت قريش اكثر من رسول الى المسلمين ليعرفوا حقيقة أهدافهم ونياتهم : ؛ وعاد الرسل جميعا مقتنعين بأن المسلمين انما جاءوا سلما ، ولم يأتوا حربا ، بهذا قال « بديل » و « ورقاء الخزاعى » و « جليس بن علقة » سيد الأحابيش ــ فلم تستجب قريش لهم .

* لقد اخذ (عروة) يناقش الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ وعلى غير قصد منه كانت يده تمتد الى لحية الرسول ، فما تكاد تتحرك حتى تجد ضربة تنهال عليها ، ويسمع صاحب الضربة يقول له : « اكفف يدك قبل الا تصل اليك » ولما سأل (عروة) عن هذا الرجل ؛ علم انه « المغيرة بن شعبة » .. وكان (عروة) قد أنقذه من الموت فى الجاهلية ، ودفع عنه دية ثلاثة عشر رجلا قتلوا « بيــــده » !!

وقد راى (عروة) من صور اعظام المسلمين للرسول ما جعله يعجب اشد العجب ، فقد راى الرسول اذا توضأ تنافس المسلمون فى التمســـح بآثار وضـــــوئه ، واذا تكلم ســـكتوا ، كأن على رءوسهم الطير ؛ وهم لا يرفعون اصـــواتهم أمامه اذا تكلموا ، ولا يحدون النظر اليه حياء منه واكبارا له .

ولمـــا عاد (عروة) الى قريش اندفع يحدثها بما راى فقال :

« والله لقد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى عظمته ؛ فما رايت ملكا فى قومه مثل محمد فى اصحابه . لقد رايت قوما لا يسامونه لشىء ابدا ، فانظروا رايكم .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد أرسل عثمان بن عفان الى قريش ، لكى يزيد اطمئنانهم ، لكن قريشا حبسته ، وعرضت عليه أن يطوف وحده بالبيت ان شاء ، فرفض أن يطوف قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد اشيع بين المسلمين أن (عثمان) قتل فصمموا على حرب قريش ، وبايعوا الرسول « بيعة الرضوان » على الموت فى سبيل الله ، ثم ظهر أن (عثمان) لم يقتل ، فهدأت نفوس المسلمين ، كما دب الذعر فى قلوب اهل مكة عندما علموا بهذه البيعة ، فأرسلوا « سهيل بن عمرو » ليطلب الصلح من المسلمين ...

وقد اتفق الفريقان على الالتزام بالشروط التالية :

* وضع الحرب بين المسلمين واهل مكة عشر سنوات .

* من جاء الى المسلمين من قريش ردوه ، ومن جاء الى المشركين من المسلمين لم يرد .

* أن يرجع النبى — عليه الصلاة والسلام — والمسلمون ، هذا العام ، على أن يعودوا للعمرة العام المقبل .

* من اراد أن يدخل من القبائل فى حلف الرسول — عليه الصلاة والسلام — دخل فيه ، ومن اراد أن يدخل منها فى حلف قريش دخل فيه .

وقد دخلت قبيلة (خزاعة) فى حلف المسلمين ، كما دخلت قبيلة بنى بكر فى حلف قريش .

وقد حزن المسلمون لشروط هذا الصلح ، اذ ظنوها خذلانا لهم ، لكنها فى الحقيقة — وكما اثبتت الايام — كانت فتحا مبينا .

لقد حقق المسلمون من وراء الحديبية مكاسب كثيرة اهمها :

١ ــ السماح للمسلمين بدخول مكة آمنين ، وما كانوا يطمعون قبل فى دخولها .

٢ ــ تفرغ المسلمين لدعوة الناس داخل الجزيرة وخارجها الى دين الله بالكلمة الحسنة التى هى سلاح الدعوة الاول .

٣ ــ اصبح المسلمون قوة معترفا بها ، لها حق المفاوضات والتحالف والحماية .

٤ ــ اسلم نتيجة الحديبية فى العامين التاليين للصلح أكثر من الذين اسلموا فى الثمانية عشر عاما الماضية .

٥ ــ بما أن المسلم لا يرتد عن دينه ، فقد تحول الذين رفض الرسول قبولهم ــ من المسلمين الجدد ــ فى المدينة ــ الى شوكة فى ظهر تجارة قريش يقطعون عليها الطريق ، ويحرمونها الأمن فى سفرها حتى الحت هى على دخولهم المدينة والغاء هذا الشرط من الصلح .

٦ ــ كان الصلح تمهيدا لفتح مكة نفسها ــ وقد نزل الوحى مبشرا رسول الله وصحبه اثناء عودتهم الى المدينة بهذا الفتح : **(انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا(١))** .

٥ ــ ومن مؤشرات السياسة الجديدة ، ومن نتائج صلح

(١) سورة الفتح : الآية ١ ، ٢ ، ٣ .

الحديبية أيضا — اتجاه الرسول — أول العام السابع — للقضاء على خيبر ، اكبر معقل يهودى فى الجزيرة العربية « وقد اخذها الرسول مالا مالا وحصنا حصنا »(١) ، ثم صالحهم على أن يحقن دماءهم ، ويحلوا له الأموال ، ففعل ...

ثم عادوا فسألوه ان يتركهم يزرعون الأرض ويعاملهم فى الأموال على النصف ، فقبل عليه السلام .

— ورأى اهل (فدك) بعـــد هزيمة خيبر انهم لا طاقة لهم بالمسلمين .. فطلبوا من الرسول الصلح على مثل ما صالح خيبر عليه .. فقبل عليه الصلاة والسلام .

***

٦ — وفى هذه الأيام ذاتها — أوائل السنة السابعة — ومن نتائج الحديبية أيضا — ارسل الرسول — عليه السلام — كتبا الى ملوك واباطرة العالم خارج الجزيرة .

وكان بديهيا أن يتجه الى القوتين العظميين اللتين تتحكمان فى مقدرات العالم ، والى هؤلاء الذين يأتمرون بأمرهما ويدورون فى فلكهما .

— اما المعسكر الفارسى الشيوعى ، فقد اتجه اليه « عبد الله بن حذافة السهمى » يحمل رسالة الى كسرى ملك فارس وحامى حمى الشيوعية الدولية ... آنذاك .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ٣/٢٤٤ .

وبديهى ان شيوعيا من طراز كسرى لايمكن ان ينتظر منه تأمل موضوعى فى الحق المعروض عليه واتخاذ موقف علمى موضوعى محايد منه .

بل لقد تعجل — واخذته العزة بالاثم — فمزق كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام — فدعا الرسول — عليه السلام — أن يمزق الله ملكه ، فلم يلبث — لعنه الله — ان دفع ثمن جموده الفكرى وغطرسته الالحادية ، وقتل — بالأسلوب الشيوعى المعروف — اذ قام عليه ابنه « شيرويه » بانقلاب ثورى دموى .

واما المعسكر الآخر من المعسكرين فكان يعيش على بقايا حقيقة نصرانية ، شوهتها اهواء الناس .. اما هذا المعسكر فقد بعث اليه الرسول — عليه السلام — بأربعة من رجالاته : دحية الكلبى الى الامبراطور البيزنطى هرقل ، وعمرو بن امية الضمرى الى النجاشى ملك الحبشة ، وحاطب بن ابى بلتعة الى المقوقس عظيم مصر ، وشجاع بن وهب الأسدى الى الحارث الغسانى ملك تخوم الشام ودمشق ...

وكما هو واضح ومتوقع ، فان من عرف تاريخه الحقيقة ، ولو شوهت بعد ذلك — اهون من الذى يقوم عموده الفكرى على محاربة الحقيقة وقوانين الفطرة .. كالشيوعية !!

وبالتالى .. جاءت ردود هرقل ، والمقوقس ، والنجاشى ، كريمة — على اختلاف مستوياتها ، ولم يشذ عن هذه القاعدة الا هذا المأجور المنافق .. الحارث الغسانى .

وهذه الكتب وغيرها ، توضح حقائق محدودة تمثل الأساس الفكرى للدعوة الجديدة ... وتدعو هؤلاء اليها .. وتحملهم

مسئوليتهم الفردية ، ومسئوليتهم فى صد شعوبهم عنها ، ووقوفهم فى طريقها .

وكما ارسل الرسول عليه السلام كتبه الى الملوك ، فانه بعث عددا آخر من صحابته الكرام ،يدعون الناس الى الاسلام ، ويشرحون لهم تعاليمه السمحة ، ومبادئه القويمة .. وفى العام السابع هذا ، بعث الرسول عشر سرايا الى القبائل المجاورة .. وتوالت البعوث بعد ذلك على امتداد العامين التاليين .

٧ — ولم يلبث العام الثامن ان حل .. فحمل معه دلالات وانعطافات كبرى فى مسيرة الدعوة الجديدة التى يقودها النبى عليه السلام ...

— وكان ابرز هذه الظواهر ... عمرة القضاء .. التى كسرت حدة الغرور القرشى .. وحطمت نفسياتهم ، وأطلعتهم على قوة المسلمين الجديدة .. ودفعت رجالا كبارا فى قريش الى الدخول فى الاسلام كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة !!

٨ — وحمل هذا العام الثامن .. عام عمرة القضاء — مغزى كبيرا ، تجسد فى غزوة مؤتة .. التى تعتبر — على الرغم من نتائجها الظاهرية — انطلاقة جديدة طموحة ، اذ كانت اول عمل كبير للوقوف فى وجه عملاء الروم فى الشام .. هؤلاء الذين يكيدون للاسلام اكثر من كيد سادتهم البيزنطيين ، حتى لقد استهانوا بكل الأعراف الدولية ، وقتلوا مبعوث رسول الله « شجاع بن وهب » .. كما تواطئوا على قتل اربعة عشر آخرين عند ذات الطلاح ، على حدود الشام مع الحجاز ..

ومع أن جيش المسلمين الذى لا يزيد على ثلاثة آلاف قد ووجه بمائة الف او يزيد ..... الا ان الاستبسال النادر العجيب لهذه

القلة المؤمنة ، ولقادتها الثلاثة الشهداء زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابى طالب » ، و « عبد الله بن رواحة » هذا الاستبسال ، مضافا الى ذكاء وحصافة خالد بن الوليد ، قد حال دون ابادة الجيش .. وجعل من نتيجة المعركة نصرا معنويا ، وقتلوا من أعدائهم اضعافا مضاعفة .

« ولا تعد خسائر المسلمين الضئيلة فى مؤتة شيئا يذكر بجانب الفائدة العسكرية التى افادها الاطلاع على خصائص قوات الروم ، وتنظيمها ، وتسليحها ، واساليب قتالها »(١) .

ولم تستطع القبائل العربية ان تخفى اعجابها بهذه القلة المؤمنة المستبسلة . وقد اعلن احد زعماء القبائل الموالية للروم اعجابه ، واسلامه ، وهو « فروة بن عمرو الجذامى » ، وقبض الروم عليه بتهمة الخيـــانة ، وحوكم ، ولم يقبل ان يرجع عن اسلامه حتى اعدم ، وكان لهذا اثره فى انتشار الاسلام بين هذه القبائل ، فدخل فى الاسلام الوف من قبائل سليم واشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة(٢) .

ولم يمض شهر واحد على معركة مؤتة ، حتى خرج عمرو بن العاص بجيش صغير ، ينقض فى سرعة على الأطراف الشمالية للجزيرة ، ويقض ـــ على انفراد ـــ مضاجع الذين وقفوا ـــ يدا واحدة ـــ فى مؤتة ضد المسلمين حتى غطى ـــ بانتصاراته الأخيرة ـــ على بعض ما كان من اصداء مؤتة ، وأشعر العرب الموالية للروم بأن هزيمة المسلمين فى معركة لا تعنى ابدا انحسار دولتهم فى أرض الشمال(٣) ..

---

(١) د. عماد الدين خليل ـــ دراسة فى السيرة ٢٩٩ .

(٢) احمد ابراهيم الشريف ، دولة الرسول فى المدينة ٢٧١ .

(٣) د. عماد الدين خليل ـــ دراسة فى السيرة ٣٠٠ بتصرف .

٩ — وكانت مكة .. هى المحـــاط الذى ترنو اليـــه أحلام المسلمين .. من هذا الشوط ....

وكانت الذهنية الاسلامية تعلم أن شرط الهدنة عشر سنوات ، حائل بينها وبين غرضها ، وهى حارسة المبادىء .. لكنها كانت تعلم أن قريشـــا لا تلتزم بالشرط .. الا اذا كان فى صالحهـــا ؛ فعهودهم — كعادة الكفر دائما — وقتية !!

وبتطور الأمور فى مؤتة على النحو المعروف ، غسرت قريش نتيجة المعركة بما يتلاءم مع مشاعرها ومصالحها ، واخذت تروج الشائعات ضد المسلمين ، وزادت فحرضت بنى بكر من « حلفائهم » على نقض عهودهم مع خزاعة حليفة الرســـول .. واستجابت بنو بكر فاعتدت على خزاعة ، وقتلت منها عشرين رجلا على ماء لخزاعة يسمى « الوئير » !!

وفزعت خزاعة الى حليفها الرسول .. تذكره الحلف بعين باكية ، وشعر حزين ...... فاستجاب الرسول لوافدهم عمرو بن سالم الخزاعى .. وقال له : « نصرت يا عمرو بن سالم » واضمر فى نفسه فتح مكة !!

* * *

كانت قبيلة « خزاعة » قد انضمت لحلف المسلمين فى صلح الحديبية كمـــا علمنا من شروط الصلح ، وكان بينها وبين قبيلة « بنى بكر » التى انضمت لحلف قريش عداوة وحروب ، فلما كانت فترة الهدنة التى ارتضاها الطرفان فى صلح الحديبية ، اعتدت قبيلة « بنى بكر » على خزاعة !!

واستعانت بقريش فأعانتها وقتلوا من خزاعة اكثر من عشرين رجلا ، وقد أرسلت خزاعة وفدا الى الرسول صلى الله عليه وسلم بقيادة عمرو بن سالم الخزاعى يستغيث بالمسلمين .... ويذكرهم العهد الذى بين خزاعة وبينهم ، ويطالبهم الوفاء بالتزاماتهم نحو خزاعة ، وقد رحب رسول الله الكريم بالوفد واجاب رئيسهم بقوله : « نصرت يا عمرو بن سالم » ، وأضمر فى نفسه فتح مكة ، وقد ادركت قريش خطأها ، وان المسلمين لن يسكتوا عن هذه الغدرة ، فأسرع « ابو سفيان » الى المدينة ليؤكد العهد مع المسلمين ، ويطلب زيادة مدة الصلح معهم . لكن الرسول عرف خداع ابى سفيان ، فلم يقبل عرضه ، وامر المسلمين بالتعبئة العامة واوصاهم بالاسراع فى الامر ، حتى لا تتسرب الأخبار الى قريش فى مكة . وفى رمضان من السنة الثامنة للهجرة تحرك جيش من المسلمين ، ولحق به جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة ، حتى اصبح عدده عشرة آلاف مقاتل . واكثر المقاتلين لا يعرفون انهم متجهون لفتح مكة . لقد طوى الرسول الأخبار عن الجيش حتى لا تتسرب انباؤه الى اهل مكة ليستعدوا للحرب وتراق بالتالى الدماء فى البلد الحرام الآمن . وقد(١) نجحت خطة الرسول عليه الصلاة والسلام فلم يشعر أهل مكة بالمسلمين الا وهم يعسكرون قريبا من مكة بمر الظهران(٢) .

ولما سمعت قريش بالجيش الاسلامى ، الذى أصبح قريبا من مكة خرج (ابو سفيان بن حرب) فى الظلام ، يستقصى أخبارهم ، وعلى مقربة من معسكر المسلمين قابله (العباس بن عبد المطلب) ونصحه بالدخول فى الاسلام ، وبالسعى لدى اهل مكة حتى لا يحاربوا ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاءهم بجيش لا قبل لهم به ولا طاقة !!

---

(١) ارسل حاطب بن ابى بلتعة كتابا الى أهل مكة يخبرهم فيه بالفتح لكن الله كشف امره للرسول ففشلت محاولته ، وعفا الرسول عنه .

(٢) مر الظهران : واد كبير يبعد عن مكة ٢٥ كم تقريبا .

واستجاب (أبو سفيان) ، وأسلم بين يدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعفا الرسول عنه ، واكرمه بقوله : « من دخل دار ابى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن لزم داره فهو آمن » !!

وفى ذلك ارضاء لأبى سفيان الذى يحب الفخر ...

ثم أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن تمر كتائب الجيش أمام ابى سفيان كتيبة كتيبة ، حتى يطمئن الى انه لا طاقة لأهل مكة بحربهم ، فيذهب اليهم وينصحهم بالسلم والكف عن القتال !!

ونجحت خطة الرسول الكريم ، ودخل المسلمون مكة مكبرين دون أن يحدث بينهم وبين أهلها قتال غير مناوشات خفيفة ، وعفا الرسول عن أولئك الذين آذوه واخرجوه وحاربوه ، واخذ يطهر مكة من الأصنام ، فقــام بتحطيم ثلاثمائة وســتين صنما كانت حول الكعبة ، وهو يقرأ : « جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » .

واظهر الرسول عليه الصلاة والسلام خلقه فى البر والوفاء ، فأبقى القيام على خدمة الكعبة فى يد (عثمان بن طلحة) وأولاده من بعده ، وأبقى سقاية الحج لعمه (العباس بن عبد المطلب) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد استثنى من العفو العام بعض العتــاه الذين استفحلت جرائمهم وعظم تنكيلهم بالمسلمين ومنهم : (صفوان بن أمية) (وعكرمة بن أبى جهل) و (هند بنت عتبة)و (عبد الله بن أبى السرح) ، وغيرهم . ولكن صاحب الظلال الرحيمة — صلى الله عليه وسلم — عاد فقبل الشفاعة فى اكثرهم ، وعفا عنهم ....

— لقد كان فتح مكة رحمة ، وكان فتحا للقلوب المغلقة !!

ودخل الناس — باللين والتسامح — فى دين الله أفواجا . وتحقق وعد الله لرسوله : (**اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا**) !!

الشوط الثانى :

(من الفتح الى الوداع) :

— كان سقوط وثنية مكة ايذانا بسقوط الوثنية فى الجزيرة العربية كلها ...

لقد احست الطائف واجوارها — باقتيازها المعقل الوثنى الكبير القريب — بهذه الحتمية التى تفرضها طبيعة المسيرة الاسلامية .

وبادرت — قبل ان تؤخذ كما اخذت مكة — فأعدت للمسلمين العدة بقيادة مالك بن عوف .. وجمعت جموعها من الخائفين على وجودهم الوثنى ... فضم التكتل قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشم وبنى سعد بن بكر ، وعددا من أبناء بنى هلال وبنى مالك !!

وبالرغم من انها استطاعت ان تخدع المسلمين فى عماية الصبح — عند مضيق وادى حنين — اول المعركة لكن ذلك لم يؤخر من النتيجة الحتمية شيئا فلم يلبث رصيد المسيرة الايمانية — فى ظلال النبوة — ان حرك مشاعر المسلمين ضد الخوف والموت .. وتحولوا الى طاقة ايجابية زاحفة على أصداء صوت الرسول — عليه الصلاة والسلام — وهو يذكرهم .. برسالته .. وبايمانهم .. وبعهدهم فى العقبة ... وبتاريخهم فى الدعوة .. وببيعة الرضوان .

وانتهت المعركة بالنتيجة المرتقبة .. وتابع المسلمون جموع الطائف الهاربة ، حتى لا تلتئم وتعاود الكرة — ثم حاصروا الطائف بضعا وعشرين ليلة .. ولم ير الرسول الكريم ضرورة لاستمرار الحصار ، وادرك ان الطائف ستجد نفسها فى يوم قريب اشبه بجزيرة منقطعة يحيط بها بحر طام من كل مكان .. وستسعى اليه حينذاك طالبة الانتماء الى الدين الجديد ، رغبة وايمانا لا حقدا ولا خوفا(١) ..

— وهذا ما حدث .. بل أكثر من ذلك ..

ثم قدم مالك بن عوف على الرسول مسلما .. واستعمله الرسول — عليه السلام — على مسلمى ثقيف .. فأخذ يحارب مشركى ثقيف بمن معه من المسلمين .. نيابة عن الرسول !!.

— ولم يمر العام حتى جاءت بقية ثقيف الى الرسول تعلن اسلامها ، وتأخذ معها أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، ليهدما « اللات » ، التى كانت احدى القلاع الكبرى للوثنية فى الجزيرة العربية !!.

وتلك نفحة كبرى من نفحات ظـــلاله الكريمة — سياسة وخلقا — عليه الصلاة والسلام !!.

* * *

---

(١) د. عماد الدين خليل : دراسة فى السيرة ٢٥٣ .

وبعد حنين ، وما تلاها ، كاد المسلمون يستريحون من تلك السلسلة الجهادية المتصلة ، ويفيئون — فى ظلال النبوة — الى تدعيم الأسس الحضارية للمجتمع الحديث الناشىء !!.

لكن الريح هبت عاتية قوية منذرة بنتائج — ان لم تواجه بشجاعة وحسم — أضاعت حصاد رحلة الاسلام الطويلة الحافلة بصفحات الصبر والعناء !!.

ذلك أن الروم الذين قاتلوا المسلمين فى مؤتة ، اشاعوا انهم يرغبون فى تدمير القوة الاسلامية الناشئة ، وغزو بلاد المسلمين .

وعندما سمع الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك ، لم ينتظر حتى يهاجم الروم المسلمين ، بل أمر بالاستعداد بالزحف على الروم مهما تكن النتائج ، وحث على اعداد ما يلزم للطريق من عدة متاع !! وكان النبى — عليه الصلاة والسلام — يخفى مقصده فى كل غزوة يغزوها ، الا فى هذه الغزوة ، لأن الوقت كان وقت شدة وعسر ، فالجو شديد الحرارة ، والناس فى انتظار الحصاد ، والطريق الى بلاد الروم شاق وطويل !!.

ودعا الرسول القادرين من المسلمين الى الانفاق ، والى امداد فقراء المجاهدين بما يحتاجون اليه للطريق والقتال .

فتسابقوا — رضى الله عنهم — الى النيل والبذل فى سبيل الله ، وضربوا بذلك اروع الأمثال فى الاخلاص ، والتضحية ، والاثارة .

ومن امثلة التضحية النادرة فى تاريخ البشرية موقف « ابى بكر

الصديق » رضى الله عنه ، فقد تبرع بكل ماله ، فلما سأله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن الذى ابقاه لأهله ؟.

اجاب : ابقيت لهم الله ورسوله !!.

— وموقف عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقد تبرع بنصف ماله !!.

وموقف عثمان بن عفان — رضى الله عنه — الذى جهز ثلث الجيش من ماله ، حتى قيل : ان أحدا لم ينفق مثل انفاقه ، اذ كان موسرا قادرا !!.

— وتبرع « عبد الرحمن بن عوف » بمائة أوقية من الفضة .

— وتبرع « طلحة » و « العباس » بمال كثير !! .

— وتبرع « عاصم بن قيس » بسبعين وسقا من تمر .

— وتبرعت النساء بالحلى من الذهب والفضة — وتبرع الرجال بالمال والمتاع والسيوف وغير ذلك مما يملكون .

وجاء كثير من الفقراء الى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يشكون انهم لا يجدون ما يحملهم فى هذه الغزوة البعيدة ، وانهم يخشون ان تفوتهم فرصة الجهاد فى سبيل الله فحمل الرسول — عليه الصلاة والسلام — بعضهم ، وساعد المسلمون بعضا آخر . اما الذين لم يجـــدوا من يعينهم فعـــادوا متأثرين واعينهم باكية من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون !!.

وقد اثنى القرآن عليهم واشاد باخلاقهم ، وصدق ايمانهم ، واسقاط التبعة عنهم ، فى قوله تعالى : « **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سـبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون »(١) .**

وكما اظهر عامة المسلمين مواقف اسلامية نادرة — اظهر المنافقون — الذين لا تخلو منهم امة ولا دين — مواقف متخاذلة خبيثة بقيادة زعيمهم « عبد الله بن ابى بن سلول » ، فقد اعتذر بعضهم عن الخروج لشدة الحر ، ففضح القرآن امرهم بقوله : **« وقالوا لا تنفروا فى الحـر قل نار جهنم اشـد حـرا لو كانوا يفقهون(٢) » .**

— وتخلف بعضهم بحجة الخوف من فتنة نساء الروم ، وتخلف آخرون ظنا ان الروم سيقضون على المسلمين ، وساقوا مبررات مختلفة كشفها الله ، واوعد اهلها خزى الدنيا ، وسوء المصير فى الآخرة ...

وقد تخلف ثلاثة هم : « كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن امية » كسلا وتقصيرا دون نفاق ولاشك ، ثم ندموا على ما فعلوا ، وصدقوا الله التوبة ، فتاب عليهم .. انه هو التواب الرحيم ..

وفى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة ، تحرك جيش

---

(١) التوبة : الآية ٩٢ .

(٢) التوبة : الآية ٨١ .

المسلمين فى ثلاثين الفـا من المؤمنين الصـادقين ، يحمل رايتهم « ابو بكر الصديق » ، ويقودهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ متجهين الى الشام ، مخترقين الصحراء ، حتى وصلوا الى ارض تبوك ، فلم يجدوا جيشا للروم الذين يبدو انهم انسحبوا عندما علموا بالزحف الاسلامى ، فعسكر المسلمون مكانهم قرابة عشرين يوما ، واتصلوا بأمراء الحدود يخيرونهم بين الاسلام أو الجزية التى تجعلهم فى صلح مع المسلمين .

ــ وقد وفد على الرسـول ــ عليه الصـلاة والسلام ــ يوحنا بن رؤبة ــ امير ايلة ، وصالح الرسول على الطاعة والجزية، كما وفد صاحبا (أذرح) و (جرباء) ، وصالحا الرسول على الجزية والطاعة كذلك . واخضع « خالد بن الوليد » دومة الجندل . وكان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد بعثه اليها فى خمسمائة من المسلمين ، واسلم اميرها ، واصبح حليفا للمسلمين .

ــ ونجحت غزوة تبوك فى تأمين حدود المسلمين ، وغرس هيبتهم فى نفوس أعدائهم ، وفى القضاء على المنافقين ، وكانت سببا فى تدفق الوفود على المدينة ، تعلن اسلامها ، أو دخولها فى حلف مع المسلمين ، وعاش الرسول عليه السلام بعدها فى المدينة راضيا بما حقق الاسلام ، مطمئنا الى انه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة صلى الله عليه وسلم !!.

ــ وبعد تبوك « العسرة » التى كانت آخر غزوات الرسـول ــ عليه الصلاة والسلام ــ وما احدثته من آثار ضخمة فى نفوس اهل الشام واليمن والجزيرة وحضرموت وعمان ، اذ رأوا بعيونهم جماعة المسلمين الناشئة تتحدى الروم فى عقر دارهم .. وينسحب الروم امامهم !!.

ــ بعد تبوك هذه اقبلت الوفود على المدينة .. تعلن دخولها فى الاسلام وطاعتها لدولة الاسلام الناشئة .

ومن الوفود العربية التى قدمت ، وفد بنى تميم ، ووفد بنى عامر ، ووفد بنى سعد بن بكر ، ووفد عبد القيس ، ووفد بنى حنيفة اصحاب مسيلمة الكذاب (وكان الملعون احد اعضاء الوفد) ووفد طيىء ، ووفد بنى زبيد ، ووفد كندة ، ووفد حمير ، ووفد همدان ...

* * *

ــ ان الوثنية قد بدت وكأنها تحتضر فى الجزيرة أمام هذه التطورات . ولقد ارتفعت كفة التوحيد عالية على امتداد الجزيرة .. والجيوب الوثنية الباقية للوثنيين أعلنت انقيادها لراية التوحيد .. لكن هذه الجيوب الوثنية ــ مع كل ذلك ــ كانت لا تزال مضمرة الشر ، مترقبة الفرصة .. وبالتالى فان بقاء الدعوة الناشئة ــ معها ــ فى قلعة الجزيرة العربيـــة كان بقاء مشوبا بالقلق والاضطراب ، وبخاصة أن للاسلام تجارب معها فى مكة والطائف والمدينة ، وبخاصة ايضا .. أن الاسلام كان مقبلا على صراع حضارى كبير لا يجوز أن يبقى معه مهددا فى داخله !! وفضلا عن ذلك ، فان دولة فكرة ، كدولة الاسلام ، تحتاج الى أرض صافية خالصة للفكرة .. ومن الخطر بمكان أن تظل دولة الفكرة مجرد دولة سياسية لا عقائدية .. وان تظل مهددة فى عقر دارها .

وان كان هؤلاء المشركون قــد عاندوا ، واصروا الى ذلك الوقت .. اصرارا كاصرار الجاهل على جهله والمريض على مرضه فان من الضرورة بمكان قيادة هذا الجاهل المريض بالقوة الى العلم والنور والدواء .. فليست الوثنية ، شيوعية كانت أو تحريفية

وثنية ، أهلا لأن تحترم كدين أو كمذهب ، ولا أن تطبق معها الأعراف الانسانية .. انها — فى خلاصتها — ردة حيوانية تحتاج الى بتر من جسم الحياة !!.

وهكذا تنزل بيان براءة ، ينذر الوثنية فى الجزيرة بانقضاء دورها الفاسد فى تاريخ الجزيرة ، وليس لها الا انقضاء عهدها الى مدته ان كان لها عهد سابق مع المسلمين ، فلا تجديد للعقود بعد اليوم .. أما اذا لم يكن ثمة عقد ، فهناك ارجاء لمدة أربعة أشهر ، وبعدها يجب أن تحمل الوثنية عصاها وترحل .. باحثة عن مكان آخر :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وان الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين ، فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم(١) » .

وهكذا يجىء اعلان « براءة » نصرا حضاريا واستراتيجيا لدولة الاسلام ، وهى تتهيأ للخطوة التالية فى تحضير العالم وفى جهاد قياداته الظافرة — على امتداد الأرض — من أجل منح حرية الاعتقاد للانسان ، حيثما كان »(٢) .

---

(١) التوبة : الآية ١ — ٥ .

(٢) د. عماد الدين خليل — دراسة فى السيرة .

— وفى العام العاشر الهجرى .. حج الرسول حجته اليتيمة .. حجة الوداع . وقد القى البيان الختامى لرحلة الدعوة الى الله — فى ظلاله عليه السلام — ولخص القيم والمعابر الكبرى لدعوته « عقائديا واقتصاديا واجتماعيا » .. فقال فيما قال — عليه السلام :

« ايها الناس ، ان دماءكم واموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا .. وحرمة شهركم هذا ..

انكم ستلقون ربكم فيسألكم عن اعمالكم .. وقد بلغت !!.

فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها .. ان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » !! وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع . وان النسىء زيادة فى الكفر ، وان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ... واستوصوا بالنساء خيرا ، وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا ... كتاب الله وسنة نبيه ..

وقد ذكر — عليه الصلاة والسلام — وصايا اخرى كثيرة ، تتناول جوانب شتى .. وكان يختم كل وصية من وصاياه بسؤاله المسلمين :

— اللهم هل بلغت ؟.

— فيجيبه تسعون الف مسلم يحجون معه : نعم .

ــ فيقول عليه الصلاة والسلام : اللهم فاشهد !!.

ولم يمض غير شهر واحد حتى مرض الرسول مرضه الأخير . ولم يأت ضحى يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الاول من السنة الحادية عشرة للهجرة ، حتى صعدت روحه الكريمة ــ عليه الصلاة والسلام ــ الى بارئها ، بعد ثلاث وستين سنة ، منها ثلاث وعشرون ــ فى ظلال النبوة ــ عليه الصلاة والسلام !!.

* * *

هذا النبى نموذج حضارة كاملة راقية

* الانسان — اى انسان ممتاز — تجتمع فيه بعض صفات السمو ، وبالتأكيد لا يوجد ذلك الانسان الذى تجتمع فيه كل صفات السمو ...

— الا محمدا عليه الصلاة والسلام !!.

* وانت — وانا — قد نقتدى بانسان فى سلوك ، ولا يضيرنا ، ولا يضيره ، ان نخالفه فى سلوك آخر ، فهذا تحقيق لشخصيتنا .

— الا محمدا عليه الصلاة والسلام !!.

* ويقولون : ان خيوطا رفيعة تفصل بين العبقرية والجنون ، وبين الشجاعة والتهور ، وبين البخل والتنظيم ، وبين الكرم والاسراف .. مما من شأنه أن يربك سلوك كثير من الناس ويجعلهم يتأرجحون يمينا ويسارا ..

— الا محمدا عليه الصلاة والسلام !!.

* والمرء قد يكون سياسيا ماهرا ، فتدفعه السياسة الى خيانة اصدقائه ، وقد يكون تاجرا ناجحا فتدفعه التجارة الى الكذب والغش ، وقد يكون زوجا ناجحا فيخضع فى تبعية وذل لمن يحب .. وقد .. وقد ..

ــ الا محمدا عليه الصلاة والسلام !!.

* وكما ذكرنا سلفا من حياة الأنبياء السابقين والمصلحين الكبار .. فانك قد تجد فى حياتهم اسوتك فى أمور العبادات .. ولكنك لا تجدها فى أمور المعاملات ، وانت ــ واجدها بالتأكيد ــ فى أمور العقيدة ، لكنك لا تجدها فى امور الأحوال الشخصية ، كزوج ، وكأب ، أو فى أمور الحياة الاجتماعية .. كرجل يتعامل مع الناس تعاملا بشريا يوميا .. وقد .. وقد ..

ــ الا محمدا عليه الصلاة والسلام !!.

* وبروز الانســـان فى بعض القيم الفاضـــلة ، قد يجره الى النقص فى فضائل اخرى .. فالشجاعة قد تدفع الى الغرور ، والكرم قد يدفع الى طلب الفخر والذكر الحسن ، وكثرة العبادة قد تدفع الى الرياء ، أو الشعور بالكمال ... وهكذا !!.

ــ الا محمدا عليه الصلاة والسلام !!.

* والعابد قد تكون عبادته على حساب بيته أو مجتمعه .. ؛

والعالم قد يكون طلبه العلم على حساب اسرته أو على حساب القيم الانسانية نفسها ، والسياسى قد يظن نفسه ملكا للأمة وليس للزوجة أو العيال .. أو الأصدقاء ..

ــ الا محمدا عليه الصـــلاة والسلام !!.

فى ظلال النبى .. وجدت — على نحو فريد — الحضارة المتوازنة البشرية السماوية الواقعية ..

— وفى ظلاله — عليه الصلاة والسلام — وجـد الانسان النموذج الذى وجدت فيه كل الفضائل حياتها وتماسكها وانسجامها.. الشجاعة .. الصبر .. العمل .. الحق .. الواجب .. الوفاء .. العدل .. الرحمة .. القناعة .. الكرم .. العفو .. الرفق .. التواضع .. الصدق .. الأمانة .. العفة .. الحكمة .. العقل .. الرجولة .. الرقة !!..

— اذهب الى ظلاله — عليه الصلاة والسلام — كما يذهب الهارب من جحيم المادية والهبوط ، وقلب صفحات حياته الندية .. وسوف تجد لكل خلق من هذه الأخلاق نصيبا .. نصيبا كبيرا ، لدرجة قد تظن معها انه عليه الصلاة والسلام كان مبتعثا لنشر هذا الخلق ، وتثبيت دعائمه وحسب !!.

— لكنك ان ذهبت الى خلق آخر ، فسوف تجد أن ما هو موجود فى الخلق الأول موجود نفسه فى الخلق الثانى .. وهكذا !!.

— ان أهل مكة الكفـار .. كانوا يسمونه « الصـادق » و « الأمين » .. فكأن هاتين الصفتين محصورتان وقاصرتان على اسمه الأصلى « محمد » !!

— والمسلم الذى يطالع الآن صفحات النبوة — يجد أن كل خلق من الأخلاق المذكورة يمكن أن يطلق عليه — صلى الله عليه وسلم — بنفس التحديد ، اى كأنه صفة قاصرة عليه .. بديل عن اسمه الكريم ، فكما قال الكفار عنه الصادق والأمين ، يقول المسلم : الصابر ، الوفى ، الكريم ، الرفيق ... الرحيم .. .. .. الخ

وهذه الاخلاق اصيلة فى ظلاله العالية .. انها ليست قابلة للتغيير ولا للتأثير .. انها فوق التغيرات والمؤثرات الخارجية .. وان كل صفة منها توضع فى مكانها السليم ..

وكل هذه الصفات انتظمت حياته — عليه السلام — على الرغم من كل تقلباتها :

— فمحمد المطارد المحارب فى مكة .. هذه صفاته !!

— محمد يعامل النفاق واليهود فى المدينـــة ... هـــذه صفاته !!

— محمد الفقير .. محمد الغنى .. هذه صفاته !!.

— محمد الرئيس .. محمد العدو .. هذه صفاته !!

— محمد الأب .. الزوج .. السيد .. الراعى .. هـــذه صفاته !!

— محمد القائد النبى الانسان .. هذه صفاته !!

وهكذا .. تمتد ظلاله الكريمة على امتداد حياته كلها ، بلا تكلف ، أو رياء .. أو قصور .. أو اختلال ..

انها صفات اصيلة .. تبدو وكأنها بعضه ، بعض دمه الزكى ، وبعض انفاسه العالية .. عليه الصلاة والسلام ...

* * *

موكب الحضارة .. في ظلال النبي ﷺ

موكب الحضارة ... فى ظلال النبى

الماضى فى ظلال النبى ليس عبثا ...

انه المســـيرة البشرية بكل الوانها ... وأمراضها ، وعلى الطبيب الأخير (عليه السلام) أن يستفيد من التجارب السابقة .

والماضى ليس تفصيلات فارغة يضيع معها الحاضر .. وآفاق المستقبل .. لا .. انه رؤية تركيبية كلية ، تهدف الى اعطـاء المضمون الأخير الذى تتمثل فيه العظة والعبرة ، حتى تعرف أمته ، كيف تنهض الأمم .. وتعرف ايضا : كيف تسقط الأمم ..

ان الماضى ليس نفيا كله ، وليس مقدسا كله .. انه — فى ظلال النبوة خليط يكشف المرض والصحة .. والصعود والهبوط .. وعلينا أن نختار !!

— والخـــير والحق والجهل فى الماضى .. هى من دعائم دعوته .. بل ان دعوته امتداد لهذا الماضى النبوى الحافل ... انه حارس هذه القيم — عليه السلام — بصرف النظر عن ماضويتها، أو عن حاضريتها ، أو مستقبليتها .

ان القيم لا علاقة لها بنسبية الزمان .. انها حاكمة الزمان .. وحامية حركته ، وليست ذيلا تابعا للأهواء المريضة والفلسفات المغرضة ، وتقلبات ما سمى بالتقدم والتخلف !!

هذا هو الماضى فى ظلال الحضارة النبوية الكاملة !!

ـ أما الحاضر ... فهو الواقع المعاش .. هو الحركة اليومية التى لا حارس لها الا ما رسمه منهج القرآن ... وما صورته ظلال النبى عليه الصلاة والسلام !

ان الحاضر حلقة متصلة بالماضى .. تهيىء للمستقبل ، فهو ليس مبتورا عن واجبات الماضى ، متخليا عنها .. وهو ليس انطلاقة عابرة عن واجبات الماضى ، عابرة مجنونة تسحق انسان الحاضر .. الجرى وراء المستقبل .

للحاضر دوره وحقه فى ظل قوانين الله ، وفى رعاية الأخلاقيات اللائقة بحق الانسان وكرامة الانسان .

واذا كان الحق والخير والجمال محترما فى الماضى ، فلابد ـ من باب أولى ـ أن يعيش فى الحاضر وأن تزدهر أزهاره فى كل ركن من أركان الحياة .. مادة ومعنى ... أفرادا ومجتمعات ، من غير انفصال عن « عبرة الماضى » أو « حق المستقبل » !!.

ـ والمستقبل له حقه فى ظلال النبى عليه السلام .

المستقبل القريب .. والبعيد معا ...

ومن المعجزات الخارقة لهذا النبى الأمى الذى لم يدرس فى معهد تخطيط او احصاء ، أو يتدرب فى مرصد من مراصد تنبؤات السياسة ... أو التاريخ ....

ـ من معجزاته ـ عليه السـلام ـ أن كل ما تنبأ به كان صدقا ...

وكان حقا ، حتى وكأنه يتكلم كلماته لرسم واقعى للمستقبل .. لا زيادة فيه .

وكلماته فى ذلك كثيرة ...

اخباره — عليه السلام — عن امته التى تشبه القصعة ، والتى يوشك أن يتداعى عليها الاعداء ، بينما المسلمون كثير ، يشبهون غثاء السيل ...

لست ترى الحديث أصدق صورة لما نحن عليـــه اليوم ، من انتفاضة روسيا واسرائيل وامريكا واوربا — على ارضنا وبترولنا !!

واليست هذه الصورة قد صدقت على المسلمين حين اقتسمت بريطانيا وفرنسا واسبانيا وهولندا — العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر والعشرين !!

* وحديثه الآخر فى مدى تبعية المسلمين لليهود والنصارى : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه ... قالوا : آليهود والنصارى يا رسول الله ؟ قال : فمن ؟ (أى فمن غيرهم) » .

— الا ترانا الآن نعيش صورة هذا الحديث .. اذيالا لليهود والنصارى ، حتى فى ملابسنا وتسريحات شعرنا وتعلمنا الدراسات العربية والاسلامية !!

* وحديثه الآخـــر عن « الفتن » حين قال لأصحابه — : « هل ترون ما أرى ؟ انى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » فكانت « الفتنة الكبرى » ... ثم كانت عشرات من الفتن الكبرى — بين المسلمين — بعد ذلك !!.

* وحديثه عن فتنة النساء بعده على الرجال !!

* وحديثه ان الله جعل بأس أمته بينها !!

* وحديثه فى الخنـــدق عن خضوع كنوز كسرى وقيصر للمسلمين !!

* وحديثه عن الامن الذى يمشى فى ظله الرجل من مكة الى صنعاء لا يخشى الا الذئب !!

* ونترك هنا معجزات المستقبلية الفردية التى تتعلق بأفراد كموت عمار بن ياسر على يد الفئة الباغية !! وموت أبى ذر وحده (فى الربذة) ، وموت « قزمان » الشجاع على النفاق !! واخباره أن فاطمة أول أهله لحوقا به الى الرفيق الأعلى ، واخبـــاره — للمسلمين (وهو فى الثالثة والستين فقط) ولمعاذ بن جبل حين ذهب الى اليمن .. بأن عسى الا يلقاه بعد عامه هذا .. وبأنه قد يمر بمسجده وقبره معا !!

* وحديثه عن قتال المسلمين لليهود .. قبل قيام الساعة !!

* وحديثه عن الفتن التى تتأتى كقطع الليل المظلم : يصبح الرجل مؤمنا ، ويمسى كافرا ... يبيع دينه بعرض من الدنيا .. « بوزارة او امراة او غير ذلك » !!

لقد عمدنا الى الاطناب بعض الشىء فى ذكر كلمات الرسول المستقبلية ، وكيف انها كانت عين الصدق ... لنكشف حقيقة دجال المــادية الجدلية اليهودية (مسيلمة العصر الحديث) كارل ماركس .. فان جميع فتــاواه التاريخيـــة المستقبلية ، التى سماها اذياله « تنبؤات » حتمية .. كانت كاذبة !!

بعد نصف قرن فقط من فتـــاواه ركعت الشيوعية — كبلد فقير — أمام الراسمالية القوية التى تنبأ ماركس بسقوطها .. ولم يسقط اى مجتمع راسمالى ، ادعى ماركس انه سيكون ملجأ الماركسية لكن على العكس آل امر المجتمعات الشيوعية الى الحضيض ... اخلاقيا وانسانيا .. وماديا ... وفكريا !!

لكن النبى الأمى (الصادق الأمين) الذى خرج فى مكة قبل اربعة عشر قرنا من ظهور عصر العلم والتكنولوجيا ...

هذا النبى .. صادق لا يكذب « وما ينطق عن الهوى ؛ ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى » !!

ـ فكل كلمة من كلماته قبس من نور الحقيقة الالهية المهيمنة على التاريخ البشرى كله :

* المهيمنة على الماضى ... بنفى الخبيث .

* والمهيمنة على الحاضر ... بتحقيق خلافة الله فى الأرض .

* والمهيمنة على المستقبل ... برسم صورته العامة التى تتحرك وفق قوانين الله ، والتى تساعد قافلة الانسان على السير ـ ايضا ـ فى طريق الحق والخير والجمال !!

« يريد الله ليبين لكم .. ويهديكم سنن الذين من قبلكم .. ويتوب عليكم والله عليم حكيم .. والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما .. يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا(١) » .

* * *

ـ وعلى محمد العربى الهاشمى ـ صاحب ظلال النبوة الكريمة ـ سلام الله ورحمته وبركاته .. .. ..

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

التأثير الفكرى للسيرة النبوية..

التأثير الفكرى للسيرة النبوية :

لم يعرف نبى ولا عظيم حظى بعناية الفكر البشرى سواء من اتباعه وأعدائه مثل العناية التى حظى بها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

بحيث انك لا ترى كاتبا على امتداد العـالم الاسلامى نال احترام التاريخ وتقدير القراء الا اذا كانت له نظرات جديدة لسيرته عليه الصلاة والسلام : كأن حياته الزكية نهر من معانى العظمة دائم التدفقْ ..

الم يصفه الله سبحانه وتعـالى بقوله : « **وانك لعلى خلقْ عظيم** »(١) ؟

ـ فكثير من هؤلاء الذين حملوا الأقلام ـ كتبوا ما كتبوا ... وشرقوا ما شرقوا .. وغربوا ما غربوا ... لكنهم لم يجدوا مكانا لهم فى التاريخ الفكرى الا عندما دخلوه من باب السيرة الزكية ..

* ذهب الدكتور طه حسين يضرب فى الأدب الشرقى تارة وفى الأدب الغربى تارة ... ويخبط هنا وهناك فى صواب تارة وفى خطأ مرة ... لكنه لم يدخل قلوب الناس ولا تاريخ الفكر الا عندما ذهب يكتب على هامش السيرة والوعد الحق .. والشيخان ..

---

(١) سورة نون : الآية رقم ٥ .

والفتنة الكبرى ، مع ما تحفل به كتاباته من نظرات جانبها التوفيق ...) .

* وذهب العقاد .. يكتب — فى صدر حياته — عن مجمع الأحياء وابن الرومى وابى نواس ومقالات واشعار اخرى مغربة ومشرقة ؛ لكنه بقى خارج القلب الاسلامى والفكر الاسلامى .. ولم يدخله الا عندما اتجه الوجهة السليمة انها وجهة « عبقرية محمد و « عبقرية الصديق » و « عبقرية عمر » و « عثمان » ... (مع ما لنا على كتاباته عن النبى كعبقرى من اعتراضات) ....

● وذهب محمد حسين هيكل يكتب قصة « زينب » و « أوقات الفراغ » الخ ... لكنه لم يصل الى عتبة الفكر الأبقى الا عندما كتب « حياة محمد » « والصديق » « والفاروق » ..

● وقل فى « خالد محمد خالد » ما تقوله فى هؤلاء ... وهلم جرا ...

* * *

وقد أصبح العرف الفكرى أن يتوج كل كاتب حياته بكتاب عن محمد عليه السلام يودعه خلاصة فكره وتجربته الحياتية فى ظلال سيرة النبى التى تمثل قمة ما ترنو اليه البشرية من سلوك وفكر .

وماكتبه اسلافنا الذين صنعوا تراثنا أبرز دليل على ذلك المكانة التى تبواها محمد عليه السلام فى هذا الفكر ....

● فما عمل المتحدثين الذين ظهروا فى عصور الازدهار

(البخارى ومسلم والترمذى وابو داود والنسائى وابن ماجة ومالك وابن حنبل ومئات المحدثين عنهم) .

... ماعملهم الا جمع كلماته عليه السلام .. باعتبارها المصدر الثانى — بعد القرآن — للاسلام .. وللفكر الاسلامى .

فالمحدثون جميعا تلامذة فكره عليه السلام .

● وما عمل الفقهاء الا التأكد من سند هذه الأحاديث وفهمها واستخراج الاحكام الشرعية منها — بعد القرآن .

فالفقهاء جميعا تلامذة فكره عليه الصلاة والسلام .

● والمؤرخون الذين ظهروا فى كل قرن ... بدءا من مؤرخى المغازى والسير والطبقات « ابان بن عثمان واخوانه » وانتهاء بمؤرخى القرن الرابع عشر للهجرة .. هؤلاء جميعا .. كانت لهم وقفات ودراسات ونقول مستمدة كلها من سيرته عليه الصلاة والسلام ... هذا بالاضافة الى الكتب التى تخصصت فى سيرته وشمائله ومغازيه مما لا يمكن حصره فى بحث وجيز كهذا .

● وفى الشعر .. والقصة .. والمقالة .. والرواية ...

كان النبى عليه السلام — وتلامذته — مصدر الالهام لمئات الشعراء . بل ان الروائع التى خرجت الى الناس واحدثت دويا .. سواء على لسان البوصيرى أو شوقى أو اقبال ... كانت هى الروائع التى قبست من سيرته عليه السلام .

● لقد حاول المجاهد الاستاذ سليمان الندوى فى كتابه الطيب الوجيز عن الرسالة المحمدية حصر هذا التأثير الفكرى للنبى عليه

السلام فى نهر الفكر . . . وذهب الى أن ذلك ضرب من المستحيل . . اذا أردنا الاستقصاء . .

وهو صادق فى ذلك كل الصدق .

* * *

وما يقال عن اهتمام اتباعه به — عليه السلام — يقال كذلك عن اهتمام أعدائه ومخالفيه من مستشرقين ومستغربين وماديين جدليين . . .

وقد ذكر الشيخ خليل ياسين فى كتابه : « محمد عند علماء الغرب » أسماء نحو من مائتين وخمسين نصرانيا ويهوديا . . . برزوا واشتهروا بكتاباتهم فى السيرة عن النبى عليه السلام بين انصاف واجحاف . .

وقد ذكر منهم على سبيل المثال : « فولتير » الفرنسى ، و « صموئيل زويمراء » الانجليزى ، و « اديسون » الألمانى ، و « سانت هيليار » السويسرى والقس « لوازون » الفرنسى ، والبرنس « كاتيان » الايطالى ، و « اميل برنامكام » الفرنسى ، و « وليم سوير » الانجليزى ، و « ويلسن » اليوغسلافى ، و « جايتى » الالمانى ، و « جيبون » الكندى ، و « ليبنز » الامريكى ، و « غوستاف لوبون » الفرنسى ، و « هربرت وايل » الأيرلندى ، و « جولد تسيهر » الأسبانى ، و « ماكس مايرهوف » الروسى ، و « روبرستن اسميث » الاسكتلندى ، و « ريتين » الاسبانى ، و « ويليم موير » الاسكتلندى ، و « جون ديفو » الارجنتينى ، الى

آخر السلسلة الطويلة التى وردت فى ملحق الكتاب (١) . وأخيرا « مايكل هارت » الذى جعل اعظم عظماء التاريخ البشرى كله مائة .. اولهم « محمد » عليه الصلاة والسلام .

ولا نتحدث هنا عن اثر تعليماته عليه السلام فى أخلاق الأوربيين وفى مسيرة الحضارة الانسانية بعامة .. فكل ما ينسب لتأثير الحضارة الاسلامية فى الحضارات البشرية ، فى مجالات التشريع والاخلاق خاصة ، انما مرجعه أيضا الى تأثيره عليه الصلاة والسلام .

لقد أحسن الشاعر الألمانى « جوته » التعبير عن تأثير النبى عليه السلام فى الفكر البشرى عندما قال كلمته المشهورة :

« اذا كان ذلك هو الاسلام ، فكلنا اذا مسلمون ، نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم .. ان دين محمد كله اخلاص واجتماع واخلاق ورعاية لبنى الانسان » .

وقال « جون أركس » الانجليزى :

« لم نعلم أن محمدا تسربل بأية رذيلة مدة حياته ، لذلك نراه عظيما » وقال المؤرخ النصرانى الاسبانى الكبير الدكتور « تينيه » : « اليك يا محمد وأنا الخادم الحقير أقدم اجلالى بخضوع وتكريم ، اليك أطأطىء رأسى ، انك لنبى حق من الله »(٢) .

عليه الصلاة والسلام .

---

(١) انظر الصفحات من ٢١٣ الى ٢٢٢ ، وانظر صفحات الكتاب فهى حافلة بالنقول من هؤلاء المستشرقين .

(٢) المصدر السابق ص ٩٧ — ١٢٨ .

المراجع

١ ــ **القرآن الكريم** .

٢ ــ **كتب السنة** .

٣ ــ **السيرة النبوية لابن هشام**
تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى
الطبعة الثالثة ١٩٧١ م دار احياء التراث العربى .

٤ ــ **الوفا باحوال المصطفى** ، للامام أبى الفرج عبد الرحمن
ابن الجوزى ٥٩٧ هـ
بتحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد طبع دار الكتب الحديثة .

٥ ــ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** للقاضى ابى الفضل
عياض بن موسى الأندلسى (من علماء القرن السادس)
طبع الحلبى ١٣٦٩ هـ .

٦ ــ **تاريخ الرسل والملوك** لابن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ .

٧ ــ **امتاع الأسماع** لتقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥ هـ
تحقيق محمود شاكر ١٩٤١ م القاهرة .

٨ ــ **محمــــد رســــول الله « اتين دينيه »** وسليمان الجزائرى
ترجمة د. عبد الحليم محمود ، ومحمد عبد الحليم محمود
الطبعة الثالثة ١٩٥٩ الشركة العربية للطباعة .

٩ ــ **الظاهرة القرآنيـــة :**
للأستاذ مالك بن نبى ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين
الطبعة الثالثة ١٩٦٨ م نشر دار الفكر .

١٠ ــ **المســلم فى عالم الاقتصاد** مالك بن نبى نشر دار الشروق
١٩٧٢ م .

١١ ــ **دراسة فى الســـيرة**
للدكتور عماد الدين خليل نشر مؤسسة الرسالة ١٩٧٤ م .

١٢ ــ **خطـــوات فى الهـــجرة والحركة** « عماد الدين خليـــل »
الدار العلمية ١٩٧٢ م .

١٣ ــ **فقـــه الســـيرة**
للشيخ محمد الغزالى طبعة دار الشعب .

١٤ ــ **قصص الأنبيـــاء**
للشيخ عبد الوهاب النجار .

١٥ ــ **فقـــه الســـيرة**
للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى الطبعة الثانية ١٩٦٨ م
دار الفـــكر (*)

١٦ ــ **النبى محمد انسان الانسانية ونبى الأنبياء**
للأستاذ عبد الكريم الخطيب الطبعة الأولى ١٩٦٣ م دار الفكر العربى .

١٧ ــ **جوامع السيرة** وخمس رسائل أخرى
للامام الحافظ ابى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ت ٤٥٦ هـ بتحقيق الدكتور احسان عباس ، والدكتور ناصر الدين الأسد طبع دار المعارف بمصر .

١٨ ــ **المحسن الأعظم والمحسنون**
للسيد وحيد الدين طبع كراتشى باكستان ١٩٦٣ م .

١٩ ــ **محمد والقوى المضادة**
للدكتور محمد احمد خلف الله نشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م .

٢٠ ــ **عالم الاسلام**
للدكتور حسين مؤنس طبع دار المعارف الطبعة الأولى .

٢١ ــ **دولة الرسول فى المدينة**
للدكتور أحمد ابراهيم الشريف .

٢٢ ــ **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة**
محمد حميد الله ط ٣ بيروت ١٩٦٩ م .

٢٣ ــ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**
للسيد ابى الحسن الندوى دار الكتاب العربى الطبعة السابعة ١٣٨٧ هـ .

٢٤ ــ النبى الخاتم

للسيد ابى الحسن الندوى طبع المختار الاسلامى الطبعة الأولى ١٩٧٥ م .

٢٥ ــ محمد نظرة عصرية جديدة لمجموعة من الكتاب طبع بيروت .

٢٦ ــ تاريخ العرب العام

ل ا ا سيديو ترجمة عادل زعيتر .

٢٧ ــ موجز تاريخ العرب والاسلام

للدكتور حسين قاسم .

٢٨ ــ مختصر سيرة الرسول

لشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب طبع على نفقة أحد المحسنين .

٢٩ ــ الرسالة المحمدية

للسيد سليمان الندوى .

٣٠ ــ عصر الرسالة

للدكتور على حبيبة .

٣١ ــ حياة محمد

محمد حسين هيكل . الطبعة التاسعة مكتبة النهضة المصرية .

٣٢ ــ دولة الفكرة

محمد فتحى عثمان الدار الكويتية ١٩٦٨ م .

٣٣ ــ **عبقرية محمــد**

عباس محمود العقــاد .

٣٤ ــ **السرايا الحربية فى العهد النبوى**

للدكتور محمد السيد طنطاوى منشورات مكتبة الأندلس ليبيا .

٣٥ ــ **الرســـول**

للأستاذ سعيد حوى مؤسسة الرسالة جزءان الطبعة الثانية ١٩٧١ بيروت .

٣٦ ــ **محمد عند علماء الغرب**

للشيخ خليل ياسين الطبعة الأولى دار الأندلس ١٩٦٧ م ١٣٨٧ هـ بيروت .

٣٧ ــ **على هامش السيرة** ٣ اجزاء

طبع دار المعارف للدكتور طه حسين .

٣٨ ــ **قبسات من الرسول** محمد قطب .

٣٩ ــ **سيرة الرسول** الشيخ الخضرى

٤٠ ــ **فجر الاسلام** لأحمد امين .

٤١ ــ **محمد المثل الأعلى** لمحمد احمد جاد المولى .

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
الاهـــداء	٧
سيرة النبى بين المنهج والمذهب	٩
مقـــدمة	١١
عالم القرن السادس الميلادى بين الشيوعية والانحلالية	١٧
المادية والفوضوية	١٩
الانحلالية البيزنطية	٢٣
ضياع العرب بين التيـــارين	٢٥
العامل الاقتصادى (المادى) والجاهلية	٢٩
حياة محمد صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية	٣٧
موطنـــه ونسبه	٣٩
المقياس التاريخى للعظماء	٤١
حيـــاة متميزة واضحة	٤٤
اخـــلاق حنيفية عالية	٥٠

الموضـــــوع	الصفحة

محمد بن عبد الله نبيا ورسولا	٥٥
الوحى .. الظاهرة والتحليـــل	٥٧
محمد صلى الله عليه وسلم يبنى الفرد	٦٩
محمد صلى الله عليه وسلم يبنى الدولة	٩١
أسلوب الدعوة	٩٦
العقد الاجتماعى الأول فى التاريخ	٩٧
النقلة التاريخية الهائلة والتحام الأرض بالسماء	١٠١
التدعيم الداخلى للدولة الجديدة	١٠٥
السياسة الخارجية لدولة الاسلام فى المدينة	١١٠
بدر .. مصير دعوة	١١٨
خطوات بين بدر والخندق	١٢٦
دولة ثابتة الدعائم	١٣١
دولة قادرة على الحوار	١٣١
دولة قادرة على الحرب والنصر	١٣٤
الخنــدق .. قمة مرحلة الدولة	١٣٦
محمد صلى الله عليه وسلم يصنع الحضارة	١٤١
الخندق ميلاد حضارة	١٤٦
حضـــارة زاحفة	١٤٨

الموضـــــوع	الصفحة

الشوط الأول : من الخندق حتى الفتح	١٤٩
الشوط الثانى : من الفتح الى الوداع	١٦١
هذا النبى نموذج حضارة كاملة راقية	١٧١
موكب الحضارة فى ظلال النبى	١٧٥
التأثير الفكرى للحضارة النبوية	١٨٣
المراجـــع	١٩١

* * *

دار العلوم للطباعة

القاهرة، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)

ت ٣٢١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٠/٣٣١٠

الترقيم الدولى ٧ — ٢٥ — ٧٣٢٨ — ٩٧٧

الكتاب

مازال الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ولن يزال معينا فياضا للفكر الاسلامى .. ما دامت الحياة على وجه الأرض .. ولن ينضب هذا المعين حتى ولو ارتاده آلاف الآلاف من الباحثين عن عظمته واعجازه السلوكى والانسانى .. المواكب لاعجاز القرآن .. وهو دستور دعوته الخالدة .

وفى هذه الدراســـة يتناول الباحث الدكتور عبد الحليم عويس بعض جوانب العظمة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .. باسلوب جديد .. يتسم بالتحليل والنظرة النفسية للأحداث .. بناء الفرد .. بناء الحضارة .. بناء الدولة .. المثل الأعلى للأخلاق .. وغير ذلك من الموضوعات التى تناولها المؤلف باسلوبه الشائق فى دراسته الممتعة التى يحس المسلم بانه فى حاجة ملحة اليها .. حتى تطرق قلبه ، وتدعم ايمانه ، وتسرى بجذورها بعيدا فى اعماق وجدانه .

هذا ولم يغفل المؤلف ــ وقد عرف بوعيه وادراكه فى الحقل الاسلامى ــ لم يغفل فى سياحته بين أرجاء العظمة المحمدية ان يضىء شموعه على طريق السيرة النبوية كوحدة متطاولة منذ الميلاد العظيم وحتى الرفيق الأعلى .

وهذه الدراسة بحق خطوة على الطريق لابد ان تتبعها خطوات حتى نؤدى القليل من واجبنا نحو خير من درج على الأرض .. صلى الله عليه وسلم .

دار الاعتصام

٨٠ قرشا